رجال الله

تأليف

الروائية الشهيرة

بيرل بك

دار الهلال

مؤلفة الرواية

ولدت (بيرل سيدنستريكر بك Pearl Sydenstricker Buck) فى بلدة (هيلز بورو) بولاية فرجينيا الغربية بأمريكا يوم ٢٦ يونية سنة ١٨٩٢ ، وقبل أن تتم السنة الاولى من حياتها سافرت الى الصين حيث كان أبوها يشتغل بالتبشير . ولما بلغت الخامسة عشرة من عمرها ألحقت بمدرسة داخلية فى شنغهاى . ثم عادت لامريكا بعد سنتين والتحقت بكلية (راندولف ــ ماكون)

ولما عادت الى الصين قضت سنوات فى شمالها ، ثم انتقلت الى مدينة نانكين حيث عملت مدرسة للآداب الانجليزية بجامعة نانكين، ثم فى الجامعة الجنوبية الشرقية ، ثم فى جامعة (شنج ــ يانج)

وفى سنة ١٩٢٥ عادت الى امريكا حيث حصلت على درجة الاستاذية من جامعة (كورنيل) وفازت بجائزة (لورا مسنجر) للتاريخ عن موضوع « الصين والغرب »

واول رواية اخرجتها هى « ريح الشرق » التى الفتهــا خلال رحلتها الثانية لأمريكا . ثم اخرجت رواية « ريح الغرب » فى سنة ١٩٣٠ . وفى السنة التالية اخرجت رواية «الارض الطيبة» فأعجب بها النقاد جميعا ، ومكثت واحدا وعشرين شهرا فى طليعة الكتب الشديدة الرواج

وظهرت لها بعد ذلك رواية « الابناء » ــ وهى تتمــة لرواية « الارض الطيبة » ــ فى سنة ١٩٣٢ . وقد وصفها وليم ليون فيلز بانها من المؤلفات الممتازة فى العصر الحديث . ثم ظهر الكتاب الاخير عن أسرة وانج فى سنة ١٩٣٥ باسم « بيت منقسم على نفسه » . وصارت الروايات الثلاث تباع فى مجلد واحد بعنوان «بيت الارض»

وفى خلال ذلك ظهرت لها فى سنة ١٩٣٤ رواية قائمة بذاتهــا باسم « الام » . كما نشرت لها قبل ذلك ترجمة لأشهر قصة صينية

وهى قصة (شوى هو شوان) وقد جعلت عنوانها بالانجليزية : كل الناس اخوة » . وفى سنة ١٩٣٦ نشرت لها روايتا « المنفى » و « الملك القاتل » وكانتا ترجمة لحياة امها وابيها . وفى سنة ١٩٣٨ كتبت لأول مرة عن الحياة الامريكية فى رواية « القلب الفخور » ، وكانت الحلقة الاولى لسلسلة روايات عن النساء الامريكيات

وقد منحتها جامعة (ييل) فى سنة ١٩٣٣ درجة الاستاذية الفخرية فى الآداب . وفى السنة التالية انتقلت الى أمريكا حيث أقامت بها ومنحت ميدالية هويلز سنة ١٩٣٥ واختيرت عضوا فى المعهد الوطنى للفنون والآداب سنة ١٩٣٦ . ثم منحتها الأكاديمية السويدية جائزة نوبل للاداب سنة ١٩٣٨ « لوصفها الدقيق الواضح للحياة الصينية الريفية » . كما منحت درجة الدكتوراه الفخرية فى الآداب من جامعة فيرجينيا الغربية وجامعة سانت لورنس

وفى سنة ١٩٣٩ نشرت لها رواية « الوطنى » . واعقبتها فى سنة ١٩٤٠ بروايتها الثانية عن الحياة الامريكية واسمها «آلهة آخرون». ثم اثرت فيها الحرب فنشرت فى سنة ١٩٤٢ رواية عن أهوالها باسم « بذرة الفول » . وأخرجت تكملة لها فى سنة ١٩٤٣ باسم « الوعد » .

ومنذ ست سنوات صدرت لها رواية « رجال الله » التى نقدمها لقرائنا فى هذا الشهر وهى تمثل مشكلة العصر الحاضر ، وهى الصراع المستمر بين الايمان والقوة .. وقد القت بيرل بك كثيرا من المحاضرات ، طبع بعضها فى ثلاثة مجلدات ، كما طبع بعد ذلك مجلدان شملا قصصا صغيرة كتبتها ، واربعة كتب الفتها خصيصا للاطفال . وقد أسست (جمعية الشرق والغرب) وتولت رياستها ، وغايتها التقريب بين الشرقيين والغربيين . وهى تكتب كل شهر نقدا للكتب فى مجلة (آسيا وامريكا) ، كما انها مستشارة لشركة (جون داى) وتتولى مراجعة ما يكتبه لها الروائيون المبتدئون



شخصيات الرواية

الدكتور لين Dr. Lane : قسيس من أصل طيب ، آثر العمل فى ارسالية بيكين ، وسيم ... أنيق رقيق القلب

مسز لين Mrs Lane : زوجته . سيدة جميلة دنيوية متعلقة بالمظاهر والماديات . . فرضت سيطرتها على زوجها وأملت عليه طريقتها فى الحياة

هنريتا لين Henrietta Lane : الابنة الكبرى. قبيحة الشكل . ميالة للعزلة. نبيلة القلب

روث لين Ruth Lane : الابنة الصغرى . جميلة جداً . سهلة الانقياد . دنيوية كأمها

وليم لين William Lane : الابن الوحيد . شاب صارم . طموح . ميال للسيطرة . قوى الارادة . ومتغطرس

بول ميلر Paul Miller : مرسل فقير جاهل يعيش على التسول باسم الرب

كليم ميلر Clim Miller : ابنه الوحيد . شاب متعصب لمثله العليا . لا يفكر فى نفسه . تزوج هنريتا لين

كانداس Candace : فتاة جميلة . ابنة المليونير العصامى كاميرون

كاميرون Cameron : مليونير طيب القلب عصامى

ارميا كاميرون Jeremy : ابنه الوحيد المعتل الصحة والأعصاب الشاعرى النزعة

امروى Emroy : نبيلة انجليزية جميلة جداً ، ذكية جداً ، قوية الشخصية

فونج Fong : كتبى صينى طيب القلب يوذى الديانة

عظيم في برجه العاجي

نحن في يوم من أيام شهر مارس سنة ١٩٥٠ ، وللربيع في ذلك اليوم عنفوان أحس له « وليم لين » هزة تحت قدميه في الطابق الأعلى من ناطحة السحاب في مدينة نيويورك . وكان وليم واقفاً أمام النافذة الضخمة خلف مكتبه والمدينة ممتدة أمام بصره كالبساط الممدود ، وعلى أفقها البعيد تراءت له انعكاسات الضوء على التلال وعلى سطح البحر

ووليم من أهل الصلاة على طريقته الخاصة . يبدأ أيامه المكتظة بهذه اللحظات القليلة من السكون أمام نافذته والعالم الممتد وراءها . وليس معنى هذا أن فؤاده كان ينطوي على أمنية أو توسل أو أنه كان يسأل الله شيئاً . كلا ، وإنما الصلاة عنده تأكيد لذاته ، فقد كان يرى نفسه رجلا ذا قدرة على الخير لا يشق له غبار في وطنه على الأقل . . وعلى أديم الشوارع من تحته تراءت له كالنمال أشكال الناس التي يوجه أفكارها وينير عقولها ويهدي ضمائرها . ولئن لم يعرفوا هذه الحقيقة التي لم يقف عليها إلا القليلون ، فذلك من دواعي استفحال قوته . فهو قد تخلى منذ زمن طويل عن الأمل في أن يغدو زعيماً شعبياً لأنه لم يوهب ملكة اكتساب المحبة الشعبية . وأكرهته التجربة أخيراً على أن يفطن إلى أن سحنته السمراء الصارمة المتجهمة تستثير الخوف أكثر مما تبعث الثقة . ولهذا لاذ بنفسه في ذلك الصرح العظيم ينشر منه على الأمة شبكته الهائلة من الصحف اليومية التي يملكها . ولهذا الغرض كان يشتري خدمات الرجال الموهوبين ويشتري أسمى ملكاتهم

وكان يعتقد أنه ما من رجل يستعصي على الشراء . ولكن ما من شيء يمكن أن يقنعه بشراء ملكة لا حاجة له بها أو لا يستطيع أن يصوغها في قالب مذهبه الخاص . فأعظم الكتاب ما كانوا ليجدوا متسعاً لأقلامهم في صحفه ما لم

يروا ما يرى . وقليلون جداً من هؤلاء الكتاب العظام من لم يملك ناصيتهم إغراء خمسين ألف دولار وهو الراتب الذى كان يدفعه للواحد منهم . بل لم يكن هناك سوى كاتب واحد عظيم لم يفلح ضعف هذا المبلغ فى إلانة قناته . ومع هذا كان يعتقد أن هذا الواحد لابد له من ثمن يمكن أن يشتريه به إن تراءى له أن يجود به . فالذى كان يشتريه ليست الألفاظ والكلمات فقط بل الأرواح والعقول أيضاً . فكل كاتب معروف بنزاهة الرأى وصلابة العود له قيمته الكبيرة حين ينضم إليه ولو لأمد محدود . لأن وليم كان يشترى بهذا المبلغ الضخم ثقة الناس فى هذا الشخص أيضاً وإيمانهم بنزاهته . وهذا هو ما يدفع عنه

جالت هذه الأفكار برأسه وهو واقف أمام النافذة يشعر باهتزاز ناطحة السحاب تحت قدميه بفعل الرياح . فلم يضطرب لذلك الاهتزاز لعلمه أن البناء الصلد تقصفه العواصف أما البناء الذى يميل قليلا فلا يصاب بسوء . ومع هذا شعر بشىء من الضيق لتلك الهزة لأنها ذكرته بأشياء بغيضة عفى عليها الزمن ارتجف لها يومئذ رعبا . . .



حينما كان غلاماً فى بلاد الصين رأى الغوغاء فى شوارع بكين وقد هموا أن يفتكوا به ، لا كراهة للونه وشخصه ، بل كراهة لجنسه . فاستولى عليه الرعب يومئذ . وإنه لرعب شديد كلما تذكره اليوم وهو فى مأمن تجددت لديه إحساسات الضيق . فكل زحام من الناس وكل جمهور من الغوغاء يذكره بذلك اليوم العصيب . مع أنه اليوم رجل لا خوف عليه من أحد ولا من شىء ، فهو أغنى من سائر من يعرفهم من الناس . وأصدقاؤه نخبة من أغنى رجال العالم الغربى . وهو من دونهم رجل لا مطعن عليه فى حياته الخاصة . وأما انه طلق زوجته الأولى ليتزوج الثانية ، فما من إنسان يرى فى هذا خطأ بمجرد أن يرى « إمروى » . فهى مخلوق لطيف صاف كأزهار الثلج . وجمالها الانجليزى ورشاقتها وطيبتها تجعل لها سحراً لا يقاوم . فاذا قورنت بزوجته الأولى « كنداس » اتضح من أول وهلة أن « إمروى » سماء الروح و « كنداس » كالثرى

ولما وصلت خواطره الى زوجته ورق لذكرها قلبه انفتح الباب من خلفه فلم يلتفت . لأنه مامن أحد غير سكرتيرته يجسر على الدخول عنده بغير إذن . وانتظر إلى أن قالت سكرتيرته بصوتها الخافت :

— يؤسفني أن أزعجك يا مستر لين . ما كنت لأدخل لولا أن زوج شقيقتك مستر « كليم ميلر » حضر

— وهل لديه موعد ؟

— كلا . ليس لديه موعد . وقد ذكرته بهذه الحقيقة فقال إنه يعتقد أنك ستقابله على أي حال لأن لديه فكرة هائلة

وكان وليم على وشك أن يقول فى حدة إن أفكار « ميلر » الهائلة لا تعنيه . لولا أنه لا يريد أن يتيح للآنسة سمث موضوعاً للغط مع المرؤوسات فينعتنه بجمود القلب والقسوة ، وإنه لنعت يعلم يقيناً أنه كثيراً ما رمى به ، لا لشىء إلا لأنه يدين بمبدأ عدم الخلط بين العدل والرحمة . ولكن نفسه لا تطيب برؤية « كليم ميلر » يدخل مكتبه هكذا فى يوم مزدحم بالعمل وهو يعتقد أنه يقابله بغير موعد سابق ويضيع وقته فى الاصغاء لفكرة من أفكاره الخرقاء . ثم إنه لا يحب أن يتذكر أن زوج « هنرييتا » قد أصبح أيضاً رجلا ناجحاً جداً . فقد أثرى كليم من أغرب الطرق . وأثرى من حيث لم يفكر مطلقاً فى الثراء . وبالرغم من هذا الغنى الطائل ما زالت شقيقته وزوجها يعيشان فى بيت حقير فى منعطف بمدينه اوهيو . وما من أحد فى الدنيا يعلم ماذا يصنع كليم بأمواله

— أخبرى زوج شقيقتي أنى أمنحه خمس عشرة دقيقة . فان تجاوزها أخرجيه يا سمث

ولم يكن اسمها سمث . بيد أن وليم لين كان يدعو جميع سكرتيراته على السواء باسم سمث . وكانت سكرتيرته الأولى تكره ذلك لما فيه من معنى التنكير . إلا أنها كانت تتقاضى مرتباً من الجسامة بحيث لا تجرؤ على إبداء الاستياء

ولما سمع الباب يغلق دار وليم مبتعداً عن النافذة وجلس فى مقعده الكبير وراء مكتبه نصف الدائرى . فبدا هيكله للداخل يتوسط المستطيل الزجاجى

الكبير الذي هو النافذة ، فكأنه تمثال قد من الصخر . لأنه كان جامداً في جلسته وعيناه إلى الباب . وعلى هذه الصورة واجهه كليم حين دخل بخطوته السريعة العصبية ولم يبد عليه الاضطراب أمام عيني وليم بلونهما المعدني الذي يتراوح بين الرمادي والأخضر كأنهما عينا ضبع .. وكان كليم رجلا قصيراً نحيفاً يغلب لون الرمال على شعره وعلى بشرته أما عيناه فزرقتهما صادقة وفيهما بريق أخاذ ولحهما ثاقب سريع . وقال كليم بصوت عال مرح :

— هالو وليم . ما أبدع المنظر من نافذتك ! وكيف حال زوجتك ؟

— إمروى في خير حال

— وكذلك هنرييتا . وقد ذهبت اليوم لزيارة كنداس

— وما الذي أتى بك لزيارة نيويورك ؟

— خطرت لي فكرة فأسرعت إلى واشنطون . ذلك أن وزير التغذية في نيودلهي بعث إلى خطاباً يخبرني أن لديهم في الهند كميات كبيرة من القمح المخزون . وحسبته في مبدأ الأمر يهرف بما لا يعرف وهو متربع هناك في مكتبه بنيودلهي . فقمت بتحرياتي الخاصة وتبين لي صدق قوله . بيد أن القمح ليس في أيدي التجار بل في أيدي الزراع وقد خبأوه بأنفسهم كما أخفي أنا أو أنت حساباً من حساباتنا في البنوك ليوم عصيب . . .

ولم يعلق وليم . لأنه لا يتصور نفسه يخفي رصيداً من ماله كما لا يتصور أن يمر به يوم عصيب . ولكن كليم شخص ما زال عاميا . وحك كليم ذقنه الشاحب واستطرد :

— ورأيي أنني إن استطعت إقناع هؤلاء المخزنين للقمح عندنا في وشنطن أن يصدروا جانباً من مخزونهم إلى الهند نفسها لأخرج المخزنون في الهند قمحهم ، لأن القاعدة أن وفرة السلعة تقضي على دوافع التخزين ، كما أن الثمن سيهبط في السوق هناك ويجد الشعب ما يأكله

— وماذا قال لك في وشنطن ؟

— الحذر المعهود : ان هذا يكون تدخلا في شئون الهند الداخلية . ومرادهم طبعا ان حصول الشعب الهندي على الطعام بثمن رخيص سيجعلهم يؤيدون حكومتهم الحالية

فانتهز وليم هذه الفرصة ليعرف شيئا عن هذا الرجل العجيب نهرو الذى لم يستطع خلال زيارته الوحيدة لأمريكا أن يفهمه حق الفهم

— وهل تراهم فى وشنطن لا يحبون نهرو ؟

— بل يحبونه الى حد محدود . ولكن عيبه انه ليس متمشيا فى سياسته الى أقصى مايذهب اليه الجمهوريون عندنا . فهم يريدونه أن يقسم على الانتقام الأبدى من الروسيين وعلى الاخلاص الأبدى لنا . ونهرو لا يريد أن يحلف على هـذا أو ذاك ويؤثر أن يحتفظ باستقلاله فى الرأى وصداقته لنا . وما من رجل عاقل فى مكانه يمكن أن يحلف على ما يريدون . ولكن هذا لا يهمنى وإنما المهم عندى أن يأكل النـاس لا لشىء إلا لأن الجوع عار ووصمة للعالم كله . وهو كذلك عار لا لزوم له ولا مبرر فى عصرنا الحديث حيث سبل نقل المؤن من أقصى الأرض الى أقصاهـا ميسرة كل التيسير . وأنا لا أقر أبداً استخدام الطعام للضغط على الشعوب . وإنما عقيدتى أن نطعم كل الناس ثم بعد ذلك ندعوهم للتفكير فى المذاهب . ومتى امتلأت البطون فلن تجد النـاس يؤيدون هذا الرأى أو ذاك سعيا وراء لقمة هنـا أو لقمة هناك . وهذه هى الديموقراطية الصحيحة . ولكننا للأسف لا نطبقها ولا نمارسها

والحقيقة ان الطعام والديموقراطية هما شغل كليم الشاغل ولاحديث له إلا عنهما . ومنذ زمن طويل سئم وليم من زوج شقيقته بسببهما . ولهذا قال بفتور:

— لست أريد أن أستعجلك . ولكنى فى الواقع مرتبط باجتماع خارق فى أهميته بعد ربع ساعة ، لشأن عاجل من شئون العمل

فارتد بصر كليم عن الأفق الممتد وراء النافذة الكبيرة وتحول فواجه وليم قائلا :

— وصلتنى خطـابات من الصين يا وليم . بواسطة شخص كنت أعرفه فى بكين

فقطب وليم حاجبيه وقال بحدة :

— انك ستورط نفسك فى المتاعب باختلاطك بالشيوعيين

— لا أظن ذلك . فالولد العجوز يعرف الحقيقة عنى

والولد العجوز فى لغة كليم هو دائما رئيس جمهورية الولايات المتحدة

— وماذا يقول عن رأيك ؟

— قال لى انه غير موافق . أتعلم ياوليم ان هناك مجاعة شديدة فى الصين ؟

— وهذا شيء مفيد لتعليم الشعب الصينى ان الشيوعيين لا يستطيعون انقاذهم

— وهذا لا يكفى ياوليم ، فهو نصف الحقيقة فقط ، وعلينا نحن النصف الثانى بأن نوصل الغذاء الى هناك . وبذلك نريهم اننا نستطيع لهم ما لا يستطيعه الحمر. وإلا اعتقدوا اننا لا نملك لهم أكثر مما يملكه الحمر . ولن يفكروا بعدها فى اتاحة الفرصة لنا

— ان الشعوب يجب أن تعاقب على سوء اختيارها

— لا ينبغى أن تتلذذ بمعاقبة الشعوب ياوليم . وليس هذا مما يجدر برجل فى عظمتك . تلك آراء تذكرنى بأفكار العهد القديم التى نسخها العهد الجديد

— لست مستعداً للتناقش معك فى الدين

— وأنا لا أريد أن أناقش فيه أيضاً . ولا شأن لى بأنك اخترت الكثلكة . فأنا لا أبالى بعنوان عقيدة الرجل ، مادام رجلا طيب النفس . وهذا ما أقوله دائماً لهنريتا . كان أبى يعتقد فى قوة الايمان ، ولكن الايمان لم ينقذه . ولست أنصح أحداً أن يتعلق به . لأننى لا أبالى كثيراً بالدين .. وإنما اعتقادى ان المرء إذا لم يكن ملء البطن ...

— أعرف رأيك هذا تمام المعرفة ... فدع ذلك ولندخل فى الموضوع ...

— يا وليم . فى استطاعتى أن أدفع بالطعام دفعاً وأوصله الى الهند ، بل والى الصين أيضاً . فنحن متخمون هنا بالطعام بحيث يستطيع رجالى أن يشتروه بسهولة بمئات الأطنان . ولا أريد من «الولد العجوز» أن يصنع شيئاً لمساعدتى فى ذلك سوى أن يشيح بوجهه الى الجهة الأخرى ... ولكنى محتاج اليك ياوليم. لأنى محتاج الى أن تسند حركتى قوة الصحافة ، حتى لا يجسر على التعرض لى أعضاء مجلس الشيوخ ومن اليهم . فالجميع فى أمريكا يقرأون صحفك وهناك ملايين لا يقرأون سوى صحفك . وأعضاء الشيوخ يخافون قوة هذه الملايين من القراء والناخبين . وما أريده منك أن تقول لقرائك هؤلاء ان إرسال الطعام الفائض من أمريكا الى آسيا أنفع بكثير من صنع أى عدد من القنابل الذرية منها ، والايدروجينية ، و...

— مستحيل ! إن كانت هذه هى فكرتك الهائلة حقا ...

— إن فكرتى هى تيسير الطعام للمتضورين جوعا يا وليم ! ولست أطلب منك أن تفعل ذلك . بل كل ماأطلبه منك أن تشرح للناس أهمية ذلك العمل الذى سأعرف كيف أقوم به

— مستحيل ! هذا هراء عاطفى مبتذل . هذه سخافة وجنون ...

— وكيف ذلك ؟ ان الناس فى آسيا لا يجدون القوت الضرورى . فاذا وجدوه على يدنا سوف يسألون من أين أتى الطعام . فيقال لهم من أمريكا . وان امريكا تطعم جميع الجياع ولا تسأل عن مذهبهم السياسى . وهذه أكبر دعاية لديموقراطيتنا ...

— مستحيل ! ان هؤلاء الناس سيأكلون الطعام ولن يعنوا بالسؤال عن مصدره . بل ان معظمهم سيظنون ان الشيوعيين هم الذين أتوهم بالطعام ... أنت ساذج جداً ...

— ولنفرض هذا جدلا ... ألا يساعدهم الشبع على الاحساس بالطغيان والتمرد عليه ؟ ان الجائع لا يميز الخطأ من الصواب . انه لا عين لديه إلا للطعام ، ولهذا لايثور الجياع ...

وسكت كليم برهة حملق فيها فى وجه وليم الذى ظل صامتا ، ثم هتف به :

— لا أظنك جربت الجوع يا وليم .. ولكنى جربته ...

ولم يجد وليم حاجة للرد ، فقد فتحت مس سميث الباب بهدوء وقالت :

— آسفة للازعاج يامستر لين ، ولكن أعضاء اللجنة ينتظرونك فى حجرة الاجتماعات

فنهض كليم وهو ينظر للسكرتيرة باسما :

— لاحاجة لاتباع هذه الوسائل معى يا آنسة . انى منصرف . والآن ياوليم ؟

— لا أستطيع أن أجيبك الى طلبك ، لأنى لست متفقا معك فى الرأى ...

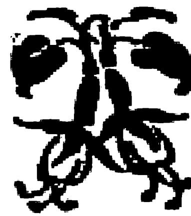
— أتتركهم يتضورون وأنت هادىء البال ؟

— نعم . يتضورون الى أن يعرفوا خطأهم ويعتذروا عنه ... مع السلامة . وتحيتى لهنريتا

وردّ كليم التحية ثم دار على عقبيه منصرفا . ولم يفكر أحد منهما فى مد يده للآخر مصافحا عند الانصراف أو اللقاء . وليس ذلك غريبا على وليم الذى يندر أن يصافح أحداً .. ثم ان عنده من الأسباب ما يجعله يكره قبضة يد كليم ، إذ ذاق قوتها منذ سنوات

وبعد انصراف كليم أخرج وليم منديله فمسح جبينه ثم صب لنفسه قدح ماء مثلج من الترموس الفضى الموضوع دائما على مكتبه ، وهو يعجب لأغرب عمل من أعمال القضاء والقدر فى حياته ، الا وهو زواج كليم ميلر بالذات من شقيقته ـ كليم هذا الذى رآه منذ نصف قرن فى شوارع بكين وظن انه لن يراه أبداً بعدها . كان يومئذ فتى حافيا جائعا ، ابن مبشر يدين بمذهب الايمان ، يعيش فى كوخ حقير ، فى أفقر أحياء المدينة ... فكيف أصبح هذا الغلام زوج شقيقته ؟

انها حكاية قديمة ... قديمة جداً ، ولكنها من أعاجيب المصادفات وتصاريف القدر حقا ...



قبل نصف قرن

كان الفتى وليم لين مضطجعاً بكل راحة فى « الريكشا » عربة والدته الخاصة عندما لمح على مسافة ربع ميل شرذمة من العامة . وهذا أمر يدل حدوثه فى شارع صينى على وقوع اضطرابات . وإن كان يحدث أحياناً أن يتجمع المارة فى شوارع بكين للفرجة على ألعاب الحواة مثلا . ولايضيرهم مهما كانوا مشغولين أن يقفوا حيث هم ساعات طويلة . ولما كان الوقت ربيعاً ، فربما كان سبب تجمعهم وجود الممثلين القادمين من الجنوب . . .

ومال وليم إلى الأمام وسأل خادمه قائلا :

— ماذا هناك يا لاولى

وكانت لهجته الصينية نحوية سليمةالخارج ، مع أنه لم يجاوز السابعةعشرة . ولكنه لم يكن فخوراً جداً بسلامة لغته الصينية ، لأن ذلك يدل على أنه ابن مبشر مرسل . ففى المدرسة الانجليزية الداخلية فى تشيفو كان الارستقراطيون الانجليز من أبناء كبار التجار والدبلوماتيين ينظرون نظرة خاصة إلى أبناء المرسلين ويضعونهم دائماً فى الدرجة الثانية . . وهذا يحز فى نفس وليم أكثر من كل شىء ويجعله يسخط على والده الذى اختارهذه المهنة ، مع أنه من سلالة كريمة وكان فى استطاعته أن يدخل السلك السياسى مثلا . ولكن ما حيلته وقد نشأ وولد فى بكين . ونحن الآن فى عطلة عيد القيامة ؟

وأجابه « لاولى » بعد أن نظر صامتاً برهة :

— شىء عجيب يا سيدى الصغير

ثم جذب فضل سترته القطنية ومسح بها العرق الذى يتصبب من وجهه وقال فى نفسه :

— إن هؤلاء الأجانب أثقل وزناً . فهذا الفتى مع أنه مازال يافعاً إلا أنه

أثقل وزناً من رجل صيني كامل النمو . وإني لأذكره حين حملته طفلا منذ سنوات ! أف ! لم أكن أجسر على التمهل أو التلكؤ وإلا ثار . ألا ما أثقل عمل رجل الريكشا في بيت أبيض . ولكن العمل الثابت عندهم شيء لا يجازف بضياعه المرء ، مهما كان وزن الأطفال ! فلأنتهز الفرصة لآخذ نفسي . .

— هل أذهب وأستجلي لك الخبر يا سيدي الصغير ؟ أم تقف عندهم لترى بنفسك ؟

فشمخ وليم برأسه كعادته وقال :

— وماذا يعنيني ما يشغل غوغاء الطريق ؟ . .

— إنما سألت عن رغبتك فقط . . .

وأسرع « لاولي » فحث الخطى عندما اقترب من الزحام حتى لا يتهمه سيده الصغير بالتلكؤ ، وإذا وليم يصيح به فجأة فذعر ، وكاد يسقط بين عجل العربة الخفيفة : « قف ! »

ومن مجلسه المرتفع كان وليم قادراً على النظر من فوق أكتاف المزدحمين . فرأى في وسط الحلقة منظراً فظيعاً . كان هناك غلام أبيض يصارع غلاماً صينياً . والناس من حولهما لا يضحكون ، بل يبدون اهتماماً شديداً وقد خيم عليهم الصمت . فصاح وليم بلهجة آمرة : « أنزلني ! »

فخفض « لاولي » الريكشا وهبط منها وليم فدخل وسط الزحام وصاح بالناس في لهجته الآمرة التي خاطب بها « لاولي » :

— دعوني أمر . أفسحوا الطريق !

فانفرج الناس له فمر من وسطهم إلى أن بلغ المركز . حيث الوجه الأصفر والوجه الأبيض يتبادلان الضربات في جد وصرامة وهدوء . فصاح وليم بالانجليزية بصوت مرتفع :

— كف عن هذا ، يا هذا !

فالتفت إليه الغلام الأبيض وسأله بحدة :

— وما شأنك أنت بهذا ؟ . .

وكان قصيراً ضئيلا شاحباً يدل شكله على نقص التغذية . أما ملابسه القطنية الرمادية اللون التي أبلاها تكرار الغسيل فكانت لاصقة بعظامه . ومع

ذلك كانت فى وجهه المربع صلابة ، ولعينيه تحت شعره الأحمر الرملى بريق أزرق خاطف . وأجابه وليم قائلا :

— إنه من شأنى بالطبع . . .

قالها بثقة ناجمة عن إحساسه بالفارق الذى يتمثل فى بذلته الكحلية الصوفية التى حاكها أرقى خياط فى المدينة ، وفى حذائه اللامع الذى يطليه كل ليلة خادم البيت الصينى . أما هذا الغلام الأبيض فقد راعه أن يجده منتعلا خفين صينيين من القماش ممزقين عند الكعب . فقال له فى غلظة وحنق ظاهرين :

— إنه مما يحط من قدر شاب أجنبي أن يقاتل صينياً . وهذا السلوك خليق أن يجعلهم ينظرون إلينا جميعاً نظرة ازدراء . فليس من حقك إذن أن تتصرف على هذا الوجه المزرى بنا أجمعين . . .

فطرف الفتى الشاحب بعينيه وطوح بقبضته صائحاً بصوت مجلجل :

— سأقاتل كل من أشاء . . !

— إذن سأرفع عنك تقريراً إلى القنصل . . .

ثم سمح لعينيه الباردتى النظرة أن تقيسا طول الفتى وعرضه الهزيل ، ثم سأله :

— ولكن من أنت على كل حال ؟ . . إنى لم أرك من قبل مطلقاً . . .

— أنا « كليم ميلر » . . .

فانفرجت شفتا وليم عن شيء ليس ابتسامة على كل حال وقال :

— أتعنى ميلر عضو ارسالية « الايمان » ؟

فلاقت نظرات كليم عينى وليم فى تحد وقال : « هو بعينه »

فهز وليم كتفيه المنظرانيين وقال : « فى هذه الحالة . . . » . ثم دار على عقبيه كمن يهم بالانصراف ، إلا أنه تمهل وقال :

— ومع هذا فمن واجبك بوصفك أمريكياً أن تفكر فى شرف وطنك

— أبى يقول لى دائماً إن العالم كله هو وطننا !

ولم يكن هناك ماهو أبشع من هذا الرأى فى نظر وليم لين . نجل المرسل

« الأسقف » الذي يعد من الارستقراطية الكنسية ، فاتجه الى كليم ثائراً وصاح به :

— ولكنك أمريكي يا هذا أياً كانت عقيدتك ، وأياً كان سلوكك . في نظر الجميع . وهذا من سوء حظنا نحن الذين نحسن السلوك ! ثم لماذا تقاتل هذا الغلام الصيني ؟

— قال هذا الصيني إن أبي متسول . . .

— وإنه لكذلك ، من بعض الوجوه !

فجمع كليم قبضته وراح يلوح بها في وجه وليم وهو يصيح :

— كلا . إنه ليس متسولا . . .

فتراجع وليم خطوة إلى الوراء وأجابه بحزم وحدة :

— تعقل يا هذا ! أنت تعلم كما أعلم أنا أن والدك ليس له مرتب ثابت من الارسالية . وليس له تعيين للجراية أو ما إلى هذا

فقال كليم في صوت قوي واضح :

— أجل ليس لنا شيء من هذا كله ولكن الله لنا . . .

فابتسم وليم ابتسامة كالحة وقال :

— أنت تسميه «الله» ، ووالدتي تسميه «تسولا» ، فكلما فرغ ما عندكم من الخبز يأتي والدك إلى بيتنا ويخبرها بذلك فتعطيه من خبزنا . وهو لا يستنكف أن يخبر كل من يصادفه أن ليس لديكم خبز ، وأن الله سيبعث لكم بحاجتكم منه ويعطيكم من كرمه . ولكن من الذي يعطي في الواقع ؟ إنها أمي مثلا ، أو من يقوم مقامها من كرام المحسنين . ! فنحن لا نستطيع أن نحتمل رؤية أمريكي يتضور جوعاً ، لأن ذلك يحط من قدرنا في نظر هؤلاء الصينيين . أفهمت ؟

وجاءه الجواب من حيث لا يحتسب . فقد أحس بضربة تحت ذقنه ، ووجد نفسه يخرج على ما تعلمه من آداب السلوك الراقي ، فرفس برجله اليمنى . وكان حذاؤه من النوع الجيد المدبب ، فصدم مقدمة ساق كليم تحت الركبة مباشرة فسقط الفتى يتلوى في التراب من الألم

ولم يتلبث وليم ليرى ما حدث للفتى ، بل دار على عقبيه وشق لنفسه طريقاً

بين زحام الصينيين الصامتين في استطلاع مبهم ، ثم اقتعد مكانه من الريكشا وصاح بلاولي : « انطلق ! »

ومن وراء ظهره ارتفعت همهمة الجماهير المستاءة ، ثم راحوا يرفعون كليم من الأرض ، وفي مقدمتهم غريمه الصيني الذي نسي الخصومة وراح يصيح ساخطاً :

— إن هذا الشاب الأمريكي يستحق الموت ! . أنتما من جنس واحد ، كلا كما آتي من وراء البحر ، فكان ينبغي أن تكونا أخوين . . .

ولم يجب كليم . وبعد لحظات من الألم الحاد ، انصرف وهو يعرج ، وتصايح الناس :

— إن هؤلاء الأجانب قساة الأكباد لهم بأس شديد ، حتى فيما بينهم

ثم أنحى فريق منهم باللائمة على الغلام الصيني الذي كان يقاتل كليم :

— واسمع أنت يا ابن هان . خذ حذرك في المرة القادمة . واعلم أنه ما من إنسان يطيق أن يسمع أحداً ينعت والده بالمتسول . حتى ولو كان كذلك فعلا

فراح الفتى يوضح لهم الأمر قائلا :

— كنا في الواقع نتكلم عن الاله الأجنبي حين سأل والده والدي أن يعطيه رغيف خبز . قائلا إنه ليس في بيتهم شيء وان الاله الأجنبي أوحى اليه أن يذهب ويطرق باب أبي لأنه خباز . فأعطاه أبي ثلاثة أرغفة ، فقال والده « شكراً لربي ، فانه دائماً يدبر ويعطي » . فقلت أنا « وكيف لا يدبر الاله الأجنبي ويعطي من عند عباده الأجانب ؟ » ، وكان هذا الغلام الأجنبي وراء والده وسمعني أقول هذا الكلام ، فطلب مني أن آتي معه . فلما صرنا وحدنا هنا انهال فوقي ضرباً كما رأيتم . . .

وأصغى الجمهور لهذا البيان بكل اهتمام ، ثم اختلفوا في الرأي ، ففريق منهم يرى أن الفتى لم يخطيء فيما فعل ، وأن تعليقه على الاله الأجنبي تعليق صائب . وفريق آخر يرى أن الصمت دائماً خير من الكلام الذي يجر وراءه عداوة البيض وغضبهم . . . فالسكوت من ذهب إن كان الكلام عن الأجانب من فضة ، أو من نحاس . . .

وارتفع صوت رجل تدل ملابسه الطويلة الفضفاضة على أنه من العلماء :

— من العجيب حقاً أن جميع المسيحيين أغنياء ، ماعدا هذه الأسرة التي تعيش بيننا نحن الفقراء في حينا المتواضع ، وعلى طريقتنا تقريباً . . .

فأجابه جزار كان يحمل كمية من مصارين الخنازير ليعمل منها سجقاً ، وقد ضربتها الشمس وهو واقف يتفرج فبدأت تفوح رائحتها :

— ومن الذى يمكن أن يفهم هؤلاء الأجانب أو يسبر غورهم ؟ . . إنهم هنا أكثر مما يجب ، وأساليبهم ملتوية ، وتفكيرهم غريب . . .

وأخذ الزحام يتبدد ، فسرعان ما أقفر المكان ، ولم يبق من أثر يدل على ذلك التجمع والشجار ، اللهم إلا آثار الأقدام الكثيرة فى التراب المتراكم على أرض الطريق الجاف . . .



خرج كليم ميلر من وسط الزحام بأسرع ما استطاع . وكان يتمنى لو أمكنه الجرى ، لولا ان حذاءه المصنوع من القماش البالى ، وركبته التي تؤلمه ، جعلا ذلك الجرى من المستحيلات

ولعل أهم مايذكره من أمر وليم لين هما حذاءاه القويان اللامعان من الجلد البنى المتين الذى يحمى الأصابع والكعب ويحمل الرفسة تترك أثرها المحتوم .. ولهذا غمغم لنفسه متحسراً :

— ومع هذا فمن المحال أن يكون لى يوما ما حذاء أمريكى كهذا الحذاء..

وكان حديثه الى نفسه دائما بالصينية لا بالانجليزية . بتلك الصينية الركيكة التي يستعملها البحارة والرعاع ، لا الصينية البكينية السليمة الراقية التي يتكلمها وليم لين . وسبب ذلك ان كليم ولد فى زورق !

ففى تلك الفترة خطر لوالده أن يبدأ فى تعاليمه وتبشيره على طريقة السيد المسيح ، فيبشر من زورق يمخر به ماء الشواطىء الطينية ويخاطب منه من يتجمعون على اليابسة ليسمعوا ، وما أكثر السامعين الصامتين فى بلاد الصين !

وكم من مرة جلس الغلام يصغى لوعظ والده حينا ، ويحملق فى وجوه الناس لاهيا بالنظر عن السمع حينا آخر . حتى إذا انصرف الصينيون وجن الليل ، أتى الأجانب الى الزورق واجتمعوا بأبيه يلومونه على هذا السلوك المزرى بالأمريكيين المحترمين ، وعلى تلك الحياة التي تشبه التسول ...

أجل . ان كليم ميلر لا يسعه وهو يعرج عائداً الى بيته أن ينكر ما فى ملاحظة الغلام الصينى من صواب . فهم حقا أشبه بالمتسولين . واتهامات وليم لين أيضا لها وجاهتها . وكم من مرة رأى ببصره من خلال بوابة البيت الكبير ذى الحديقة الغناء كيف يعيش فيه وليم مع آله وكيف يختار أرقى أحياء المدينة، حيث رجال السلك السياسى ... وما أبعد الفرق بين هذه الحيـاة ، والحياة الزرية التي يعيشها هو مع آله فى الكوخ ذى الحجرات الخشبية الأربع فى الحارة الصينية القذرة ...

ألا ما أعظم شجاعة أمه ! انها لاتشكو ولاتتذمر ، وتتشبث دائما بالايمان. ولكنه مع هذا يذكر جيداً انها رفضت أن تستمر فى الحياة فى ذلك الزورق يوما واحداً بعد أن سقط فى النهر طفلها الأصغر فغرق . ونشب بين والديه بخصوصه نقاش حامى الوطيس ، فقال بول ميلر :

— مارى ! مارى ! لكأنى بك وقد تزعزعت ثقتك فى الله تحت وطأة التجربة !

فحاولت مارى أن تكف عن بكائها ونحيبها ، وقالت له :

— بل أثق بالله كما وثقت دائما ، ولكنى لا أستطيع أن أحتمل منظر الماء بعد ذلك ..

ولم تنجح المحاولات الجبارة فى استخراج جثة ارثر الصغير . وبعد اليأس التام رحلت الأسرة من شنغهاى الى بكين . أما عن مصاريف السفر الى شنغهاى بالدرجة الثالثة ، فقد استشار بول الله فأمره أن يلجأ الى زملائه المرسلين الأثرياء . وكان هؤلاء المرسلون على أتم استعداد لتحمل نفقات التخلص من انتسابه الى زمرتهم فى بلدهم هذا . وتبارت زوجات المرسلين فى جمع كمية من ملابس الأولاد القديمة للاطفال ، ومن ملابسهن لمارى . حتى لقد اغرورقت عينا بول ميلر بدموع الامتنان وهو يرفع عينيه الى السماء ويقول لامرأته :

— أرأيت الى مراحم الله ؟ أرأيت كيف أغدق علينا من كرمه ؟

وعندما كان « كليم » يتشكك فى رأى أبيه ، كانت أمه ترده عن ذلك بلطفها المعهود قائلة :

— إن والدك على حق يا كليم ! فالله دائماً يتذكرنا ويغدق علينا وإن كان أحياناً يمتحن إيماننا

فكان كليم لا يجيبها ، ولكنه ينطوى على حزن ومرارة ، ولا يستطيع لخجله أن يواجه الناس ، حتى وهو وحده . أما وهو مع أبيه فشعوره بالخجل لا نظير له . فالناس كما يراهم ينقسمون فريقين : فريق الأغنياء الذين لديهم فوق كفايتهم من الطعام لا يحتاجون الى الصلاة أو الاستجداء لتدبيره . وفريق المحرومين الذين لا ينالون القوت إلا بالصلاة والتوسل أو التسول ، والى هذا الفريق الأخير ينتمى أبواه

وانه ليعجب كيف ان الله يتوعد الأغنياء ويؤكد أن دخول واحد منهم فى ملكوته أمر شاق جداً ، أصعب من دخول الحبل الغليظ فى سم الخياط ، ومع هذا فهو رحيم بهم ، متساهل معهم ، لايكلفهم فى حياتهم هذا الارهاق ، فى حين يشق على الفقراء ويجعل كل وجبة يملأون بها بطونهم من الخبز القفار مسألة خطيرة ومشكلة تحتاج منه سبحانه الى معجزة ، والى تدخل مباشر ، كأنها حادث كونى !

وكم من مرة فكر فيها أن يفارق أسرته خلسة ، فيضرب فى الوديان الذهبية سائراً على قدميه الى أن يبلغ الشاطىء . وهناك يتسلل الى سفينة مبحرة الى أمريكا ويعمل فيها نظير نقله الى هناك ... الى الأرض التى ولد فيها أبواه ، الأرض العجيبة التى سمع عنها كما يسمع عن أخبار الجن وقصص علاء الدين... ومتى نزل تلك الأرض توجه من فوره الى بنسلفانيا حيث جداه لأبيه فى مزرعتهما

ولكن قلبه يخذله فى آخر وقت ولايسمح له بمغادرة أهله فى هذه الظروف ، مع انه قد تجاوز سن الخامسة عشرة وصار أمر مستقبله يؤرقه كثيراً . ولكنه لم يكن يصارح والديه بهذا القلق ، فهو يعرف سلفاً ما سيقولان له :

— لاتقلق . ودع الأمر لله . توكل مثلنا على الله ، وهو لن يتخلى عنك

وهذا التوكل شىء جميل طبعاً . ولكنه لا يكفى لتعليمه اللاتينية والرياضيات وقواعد النحو الانجليزى . وتلك الكتب القديمة التى اشتراها من بائع الكتب الصينى نظير تعليم ولده اللغة الانجليزية (كلاماً لا كتابة) لم يستطع الاستفادة منها بمفرده كما يجب . ولهذا فهو يشعر بحاجة شديدة الى معلم . وهو لايستطيع

أن يستجدى التعليم من المرسلين ، فلئن أكل من خبز الصدقة الذى يستجديه منهم أبوه ، إلا انه لا يجسر على استجداء شيء لنفسه شخصياً . وهاهو اليوم وهو فى طريقه من دكان «فونج» بائع الكتب الصينى وقد رأى والده يستجدى من الخباز ، سمع تعليق ابن الخباز ، فنتجت هذه المشاجرة التعسة بمجرد ابتعاد أبيه عن المكان ...

وحين تذكر « فونج » هدأت نفسه . فالناس فى هذا البلد لطاف المعشر ، ومعظم من يعرفهم يبدون له المودة والعطف . ولهذا شعر بالأسف لمقاتلته هذا الغلام المسكين . بل انه يراه الآن على حق ... فآل ميلر — على ما عرفوا به من توكل على الله — متسولون !

ودخل كليم من باب بيته وعلى وجهه نظرة حزينة ، حتى ان والدته التى كانت تضع على المائدة الصينية المربعة آنية الطعام المصنوعة من الفخار توقفت عن عملها ورفعت اليه بصرها ثم سألته قائلة بصوتها العذب الذى يشبه صوت الأطفال : « ماذا بك ياولدى ؟ »

بل ان وجهها المستدير كان ينضح بالطفولة بالرغم من كل ما تقاسيه من شظف العيش ، ومع ان شعرها الذى كان يوماً ما أحمر ذهبياً ناعماً قد صار فى لون الرماد . وان كليم ليحبها جداً ، بالرغم من انتقاده لمذهبها فى الحياة ومذهب والده أيضا ، لأنها شديدة الرقة ، فهى ينبوع الحنان للأسرة كلها . ومع ذلك فقد قوى قلبه فى هذه اللحظة وصارحها بما يدور فى صدره قائلا :

— أماه . لقد بدأت أتبين الحقيقة . اننا فعلا متسولون !

فمالت فوق المائدة بدهشة شديدة وقالت له : « ولماذا يا كليم ؟.. »

فانطلق بغير روية يفضى اليها بما عنده :

— لقد نعتنا غلام صينى بأننا متسولون ، فتشاجرت معه . كلا ! لاتنظرى الىّ هكذا يا أماه ! ومر بنا وليم لين فى تلك اللحظة ، فأوقفنى عن الشجار ، ولكنه أفهمنى أيضا ان الغلام الصينى كان على حق فيما رمانا به . وهذا هو الواقع !

— انى أرتجف خوفا عليك . فلو تخلينا عن الايمان ، لن يبق لنا شيء ..

— إنى أريد مزيداً من الايمان يا أماه ...

— كن كأبيك . إن إيمانه لم يتزعزع فى أحلك الظروف والمواقف . حتى



وقالت له فى ضراعة : « ولدى العزيز . ان ما تقوله الآن قلته أنا فيما مضى .. »

حينما فقدنا المسكين ارثر الصغير . وكان إيمـانه من القوة بحيث استطاع أن يقويني أنا أيضا

وعندئذ تهدج صوتها ، وارتعدت شفتاها ، وأخذت الدموع التي تقف دائما عندها على أهبة الاستعداد تنهمر مدراراً . وابتسامتها الخجول تتلاعب على فمها ، وفي عينيها الذهبيتين !

— بل يمكنه أن يظهر إيمانا أقوى مما عنده ...

— وكيف يمكن ذلك يا عزيزي ؟

— بأن يمتنع عن الذهاب الى أبواب الناس ليخبرهم عند مايفرغ من بيتنا الخبز . بهذا يدل على انه واثق بالله حقا . أو على الأقل يجب ألا يستجدي من المرسلين الآخرين

ورفع عينيه الى وجهها ليرى أثر كلامه ، وكم كانت دهشته حين رأى في عينيها الرعب الشديد ، حتى لقد اخضرت وجنتاها الشاحبتان عادة . ثم مدت نحوه يديها ، فلما لم يرتم بين ذراعيها ، ارتمت هي على الأرض راكعة بجوار مقعده الخيزران المنخفض ، فصار وجهها في مستوى وجهه ، وقالت له في ضراعة:

— ولدي العزيز . إن ما تقوله الآن قلته أنا فيما مضى ، ولـكن في قلبي ..

— ولـكن لماذا لم تخبري به أبي ؟

وشعر بمزيد من الحب لها لأنها لم تحاول خداعه . ومع هذا لم يجد في نفسه ميلا للمسها . لقد أصبح يكره اللمس والمداعبة . وأحست هي منه هذا النفور فلم تلمسه ونهضت فعقدت يديها على صدرها ونظرت اليه في ابتهال قائلة :

— لم أستطع ذلك للسبب الذي من أجله لاتستطيع أنت أيضا أن تصارحه بما عندك . لأن ذلك خليق أن يحطم قلبه . ان مجرد تفكيره في اننا نشك في الله يقتله !

— إن هذا ليس شكا ، بل مجرد طلب برهان من الله !

— ولـكن طلب البرهان لايكون إلا عند الشك . والله لا ينبغي أن نشك فيه يا عزيزي . لقد شرح والدك لنا ذلك . ألا تذكر يا كليم ؟

أجل انه يذكر ، يذكر جيداً هذا التفسير الذي طالما كرره على مسامعهما في الصلوات الطويلة العائلية التي يعقدها أبوه كل صباح وكل مساء . مؤكداً

لما ان طلب البرهان من الله معناه الانقياد للشيطان ، لأنه مكتوب «لاتجرب الرب إلهك » ! فالشك هو الرماد الذى يلقيه الشيطان ليعمى به عيون ابناء الرب المتوكلين على الله !

واستطردت أمه قائلة بصوتها العذب الحنون :

— ثم انى يا كليم أحب أباك جداً ، أحبه بحيث لاأجسر على جرح شعوره . ويجب أن تحبه أنت أيضا مثل ذلك الحب يا كليم . فليس لأبيك فى هذا العالم أحد سوانا .. أنا وأنت ، لأن الأطفال الآخرين صغار جداً لا يفقهون ... فيجب أن يكون واثقا من قوة إيماننا كى يتعزى قلبه ويتقوى عزمه . وأبوك رجل طيب القلب جداً يا كليم . ليس لطيبته حد . انه أطيب رجل رأيته فى حياتى . انه مثل السيد المسيح ، لا يفكر مطلقا فى نفسه ، ويفكر فى كل انسان آخر ...

وكان هذا صحيحا . وإن كان كليم يكره أحيانا إيثار أبيه وعدم أنانيته الى درجة التواضع المخجل لكليم .. بيد أنه كان يدرك أن التواضع هو صورة الايثار النقى الخالص . فيستسلم ويتنهد ...

وهذه المرة أيضا تنهد كليم مستسلما لطيبة قلب أبيه ونقاء ضميره ، ثم نهض قائما وسأل أمه قائلا :

— هل والدى هنا ؟

— كلا . لم يحضر بعد . فقد ذهب للتبشير بالرب فى السوق ...



ترك بول ميلر ميدان السوق حيث كان قد توجه ليبشر بنعمة يسوع المخلص بين هؤلاء الناس المشغولين عن النعمة والخلاص بالبيع والشراء . تركهم يائساً من اهتمامهم بما يقول ، وفى طريقه الى البيت التقى بالدكتور لين عائداً من تدريس أصول الدين كعادته بعد ظهر الأربعاء من كل أسبوع فى الكنيسة . وفى الأحوال العادية كان هذا المرسل الطويل القامة الوسيم الطلعة يمر جالساً فى عربة الريكشا الخاصة به بكل ارتياح ووجاهة فلا يلقى بالا الى هذا الرجل القصير الذى يخوض فى التراب بحذاءيه العتيقين . وإن ألقى اليه بالا فلا يعدو أن يلقى اليه بإيماءة من رأسه فى مضض . أما اليوم فقد خرج الدكتور لين

عن مألوف عادته وأوقف الريكشا وقال :

— ياميلر . هل أستطيع أن أتحدث اليك قليلا ؟

— بالتأكيد يا أخى لين ...

وابتسم هنرى لين لهذا اللقب ابتسامة هينة فقد كان فى الواقع أخاً بالروح طبعاً لجميع البشر ، لأنه فيما يعتقد مسيحى صادق . ولكن كيف يستريح الى سماع هذه الكلمة تنطلق عالية فى شوارع بكين من فم رجل أبيض يرتدى هذه الملابس الزرية ؟ انه لا يشجع زوجته أو ولده حينما ينقدان أسرة مرسل الايمان . وكان يذكرهما على الدوام بأن السيد المسيح يمكن التبشير برسالته بطرق متباينة . ومع هذا فقد كان من الصراحة مع نفسه بحيث لم ينكر ان شعوره فى هذه اللحظة بالذات كان شبيهاً بشعورهم . فمما لا شك فيه ان الجالية الأجنبية فى بكين يضع من قدرها وجود آل ميلر هناك . وأسوأ من هذا انهم مرسلون يبشرون على الأقل بالمخلص الواحد الذى يبشر بمسائر المرسلين . وكم أثارت أسرة مرسل الايمان الدهشة والتساؤل بسلوكها العجيب بين صفوف رعايا كنيسته الوطيدة الأركان

وبدأت تتجمع حول الأمريكيين حلقة من الناس كأنما انشق عنهم وجه الأرض . ولما كان هنرى لين واثقاً انه ما من صينى منهم يتكلم الانجليزية فقد آثر أن يتجاهلهم !

— يا ميلر . خطر لى انه يجب على أن أنذرك . فمن المحتمل جداً أن تثور هنا عما قريب قلاقل تستهدف الأجانب بالسوء . وما سمعته لا يطمئن

— وماذا سمعت يا أخى لين ؟

فوضع ميلر يديه على حاجز الريكشا وراح ينظر باعجاب الى وسامة هذا الكهل ورشاقته الروحية . ولم يخطر له ببال مطلقاً أن يحسد فخامة مسوحه السوداء أو بياض ياقته المنشاة وحرير ربطة عنقه . والتفت الدكتور لين حوله ثم قال بصوت منخفض :

— لقد نما الى من بعض خدمى وله شقيق من خدم البلاط الامبراطورى ان الامبراطورة الوالدة ميالة لمساعدة الحزب الرجعى المتطرف من المشعوذين الدينيين . وقد استعرضت اليوم شخصياً بعض حيلهم التى يزعمون فيها الحصانة

ضد الرصاص والحراب . وكل ما تخشاه الامبراطورة الوالدة هو أسلحتنا النارية. فمتى وثقت ان هؤلاء الأوغاد محصنون ضد أسلحتنا فقد تشجعهم على القيام بحركة مسلحة لطرد الأجانب كلهم من البلاد بالعنف . ولهـذا يجب أن تفكر فى أسرتك يا ميلر

— وماذا عن أسرتك أنت يا أخى لين ؟

— سأرسلهم الى شنغاى . فبوارجنا هناك

فرفع بول ميلر يديه عن الحاجز اللامع وأجال بصره فى سحن الصينيين الواقفين من حوله بوجوههم الشاحبة ثم قال ببساطة :

— إنى أضع ثقتي فى الله واعتمادى عليه لا على البوارج

— واجبي على كل حال أن أنذرك ..

— شكراً لك يا أخى ...

ثم أشار هنرى لين الى قائد الريكشا فانطلق به

ووقف بول ميلر وقد غاص كعباه فى تراب الربيع يرقب الريكشا الى أن غابت عن بصره . وكان وجهه مربعاً نحيفا وجلده مازال أبيض محمراً مع انه قد انقضت عشرون سنة منذ سمع أول نداء للرب وجهه اليه فى اجتماع للطائفة فى بنسلفانيا . فترك مزرعة والده متغاضياً عن أسى هذا الشيخ وجفيعته لفراقه ثم رحل الى الصين باعتبارها البلد الكافر الوحيد الذى كان قد سمع عنه . وقام الاعان بتدبير كل ما لزم له ولمارى فى عبور القارة ثم فى عبور المحيط الهادى فى سفينة بضاعة . ولم يعد الى وطنه منذ ذلك اليوم . لأنه لم يجد من المناسب أن يطلب من الرب اجازة طويلة فى الوطن مع ان المرسلين الآخرين يأخذون اجازة عام كامل كل سبع سنين

ولمعت عيناه واختلج فمه لأنه حتى ذلك اليوم لم يكن واجه احتمال الموت ، لقد جاعوا أحياناً كثيرة ومرضوا فى بعض الأحيان . وحزنه على آرثر الصغير بقى كامناً فى أعماقه مع انه اجتهد كثيراً ألا يفكر فيه . أما الموت على يد هؤلاء القساة وموت ميرى والصغار أيضاً فشىء لم يحلم به حتى فى تلك الليالى التى قام الشيطان يجربه فيها بالشكوك وبالحنين الى الوطن والى حياة المزرعة الندية التى عاشها فيما مضى

نعم انه يشعر بالحنين الى الوطن حتى الآن ولكنه لم يعد يصارح ماري بذلك . لأنهما في البداية كانا يبكيان معاً من شدة ذلك الحنين الى أن يستغرقا في النوم . وقد كتبت اليه أمه مرات كثيرة الى أن طواها الموت منذ عشر سنين. أما والده فلم يكتب اليه كلمة واحدة . وهو لايدري اليوم إن كان حياً أو ميتاً

وها هو يقف الآن في وسط الشارع الصيني وقد أخذ الظلام يخيم رويداً رويداً يستمع الى تلك الأصوات المألوفة في كل مساء ، من بكاء طفل مريض، أو صياح أم تنادي أولادها ليعودوا من اللعب في الطريق الى البيت . وأخذ الفزع يغمره كما يغمر كل غريب في أرض غريبة . فأين يستطيع أن يفر هو وأسرته ؟ وتراءت له زوجته برقتها وحنانها ، والبنتان الصغيرتان الشاحبتان وولده اليافع . إن هؤلاء هم كل مايملك من الدنيا . أعطاه الرب اياهم . ولكن ماذا أعطاهم هو ؟ لقد حرمهم من حقهم الموروث في المزرعة . ومن الأمان الذي يتمتع به أبناء جنسهم ، بل ومن سقف أمين يظلل رؤوسهم

لئن قتل الأشرار هؤلاء الذين يرعاهم فلن يثق بعدها في الله . وفي ظلام الليل مد ذراعيه في ضراعة نحو السماء . وكانت النجوم المتلألئة تومض فوق رأسه . والقمر لم يظهر بعد فلا يستطيع أن يراه في الظلام أحد . وركع بول ميلر على ركبتيه وراح يصرخ مخاطباً الرب ثم جمع يديه فوق صدره ورفع وجهه وأغمض عينيه عند ماخيل اليه ان النجوم تضحك منه . ثم ناجى ربه همساً :

— يارب . يا من تنظر الى في هذه اللحظة . وتنظر أيضاً الى بيتي القديم العزيز في الجانب الآخر من البحر . ذلك البيت الذي تركته يارب على اعتقاد ان هذه ارادتك ورغبتك . انك أنت تستطيع أن تنظر في القلوب وتعرف هل حقاً يريد الأشرار أن يمدوا أيديهم الى حياتنا . وبكل تواضع يارب أخبرك انني لاحظت بنفسي شيئاً من الاختلاف في هؤلاء الصينيين في الأشهر الأخيرة . فصاحب البيت يريد منا أن نرحل ولا يبدي الأسباب . وكنت أدفع له الايجار باستمرار مع انك أنت تعرف يارب ان النقود لم تكن موجودة في الوقت المعين. بيد انك كنت تدبر الأمر برحمتك . أنقذ يارب حياتنا ونجنا ولا سيما هؤلاء الأعزاء الذين أعطيتني اياهم . وفي الختام أقول لتكن مشيئتك يارب . واني لايمكن أن أحبهم أكثر منك . آمين

وغاصت رأسه فوق صدره واستقر ذقنه فوق راحتي يده الموضوعتين هناك ولبث صامتاً ينتظر مدد الايمان كي تنفجر ينابيعه في قلبه . وأخيراً جاء ذلك المدد فتدفقت الدماء حارة في عروقه وقوى قلبه كأنما شرب كأساً من الخمر . وأوحى اليه انه صواباً فعل . وكأنه يسمع بوضوح تلك الكلمات :

— لا تخف يابول ميلر لأنني معك دائماً

فانحنى بول ميلر وقال بامتنان عظيم :

— آمين أيها السيد الرب الكريم ...

ثم نهض وأخذ يمشي بخطى حثيثة في الشوارع المقفرة متجهاً الى الحجرات الأربع حيث ينتظره أحباؤه . وكان يقاوم باجتهاد حبه المتزايد لهم ويقول لنفسه انهم ليسوا كل ما يملك ، لأن لديه أيضاً المحبة الإلاهية التي لا نهاية لها

وبعد أقل من نصف ساعة فتح باب البيت ورأى المنظر الذي طالما أدخل السرور الى قلبه : رأى المائدة وقد وضعت فوقها وجبة المساء . وجلست ماري بجوار مصباح البترول ترتق ثوباً . وبجوارها كليم يدرس في بعض كتبه العتيقة . أما الطفلتان فكانتا تلهوان بعروس من الطين جادت عليهما بها امرأة صينية

ورفع الجميع أبصارهم عند مادخل وسمع تحيتهم . وإذا به لا يستطيع مغالبة الدموع التي انهمرت من عينيه . ونهضت ماري للقائه واتجهت نحوه . وسره ان الضوء كان خافتاً ، ولكنه على سبيل الاحتياط أغلق عينيه حين احتضنها وقبلها لكي لا تسقط دموعه على وجهها . وبعد ذلك اتجه نحو الصغيرتين فقبلهما ، وتحاشى عيني ابنه . حتى إذا تغلب على هذه النوبة الفجائية من الحنان الدامع قال لكليم ابنه :

— أي كتاب هذا يا ولدي ؟

— كتاب تاريخ يا أبي . حصلت عليه اليوم من دكان مستر فونج

— أي تاريخ يا ولدي ؟..

— تاريخ أمريكا ...

ولم يعلق بشيء لأنه كان مشغولا بالسعادة التي غمرت قلبه وهو في وسط أولاده وزوجته . ومرة أخرى وضع ثقتـه في الله وعول على أن يكتم عنهم أنباء الخطر

البيت الكبير

أضيئت المصابيح كلها فى بيت الارسالية الكبير . وكان الدكتور هنرى لين فى الطابق العلوى يرتدى ملابس السهرة استعداداً للعشاء كعادته كل ليلة . فانه تحت ضغط زوجته المتمسكة بأهداب هذه التكاليف لا يستطيع أن ينطلق على سجيته

منذ عشرين سنة حين غادر الكلية كان من ذلك الطراز الذى يسميه هو الآن الطراز الحالم . إذ كان يعتقد أن رجل الله يجب أن يتقشف . وسنوات الحرب الأهلية ساعدت كثيراً على تكوين تفكيره وضميره وإن كانت أسرته لم تشترك فى الحرب بأشخاصها . وإنما ساعدوا على إيواء العبيد الفارين من الجنوب ومنحوهم القروض للاستقرار والعمل

ومع أن والده كان من شيوخ الكنيسة الأسقفية فى كامبردج ، إلا أنه استشاط غضباً حينما أعلن اليه ولده رغبته فى أن يكون مرسلا . وقال له :

— إننا طبعاً يجب أن نبعث مرسلين إلى أراضى الكفار . ولكنى لاأرى أن نبعث اليهم بخيرة شباننا . يكفى أن ننفق من مالنا على من يذهبون . وأنا فى شبابى كنت أريد أن أتطوع فى الحرب . ولم يوافق أبى فأطعته

— لأن الله لم يكن ناداك لتذهب الى الحرب . . .

وقد أفاده الصمود أمام والده كثيراً حينما وقع فى غرام هيلين فاندفنت بعد بضعة أشهر . وكانت يومئذ أوسم فتاة رآها ، تدل طلعتها وقامتها على النبل . وكان هوطويلا ، بيد أنها كانت أطول منه . ذات خيلاء دنيوى كما اكتشف فيما بعد . وخر هنرى على ركبتيه يسأل الله المعونة كى يستطيع ترويضها ، ولكنه لم يطلب منه المعونة كى ينساها أو يتخلى عنها . وظلت هى تراوغه عامين تقريباً . وكانت تحبه واعترفت له بذلك . بيد أنها كانت غير مستعدة

لمشاركته حياة المرسلين التي صمم أن يحياها . وكانت تعارضه في ذلك بشدة وتقول له :

— لست أطالبك بالتخلي عن الكهنوت . ولكني أقول إن لدينا في أرض الوطن أرواحاً تحتاج الى من ينقذها فامكث هنا

هذا ما قالته منذ عشرين سنة . وإنه ليذكر تماماً كيف ألقت اليه هذه الكلمات من طولها الشامخ ومن ثوبها الأزرق المشرق ومعطفها من نفس اللون . بل ان قبعتها أيضاً كانت محلاة بريش أزرق ، بيد أنها محاطة بحرف أبيض . كانت هيلين تبدو كالملكات بهيبتها وبلهجتها الآمرة وثقتها بنفسها . وكان قلبه يترنح تحت قوة إرادتها . بيد أنه استجمع رباطة جأشه وقال لها :

— ولكني يجب أن أخدم الرب حيث أمرني

فهزت كتفيها وقاومته ستة أشهر أخرى . ظل طول الليل والنهار يطلب من الرب قوة لنفسه على مقاومتها ومعونة على ترقيق قلبها . ومنحه الله القوة . أما رقة قلبها فلم يجد لها أثراً . فانتزع نفسه منها في مساء يوم من أيام الصيف وكانا على الشاطىء . ومن حولها كوكبة من الشبان يتبارون في خطب ودها . وجمع شجاعته وسافر الى الصين وهو لا يدري هل تتبعه أم لا

فلما تأكدت أنها يمكن أن تعيش في بكين حياة متحضرة بعثت اليه خطاباً تقول له إنها مستعدة للزواج منه إذا نقل ارساليته من الريف في الداخل الى العاصمة بكين . وأذعن لرغبتها . فجاءت الى هناك وأشرفت على إدارة البيت الكبير بكل حزم وتدبير

وهو الآن لا يستطيع أن يمنع نفسه من الشعور بشيء من القلق على ولده . ففي هذا الغلام شيء جامد . وفيه زهو وكبرياء . أما ضحكه فنادر جداً . وما أسرعه الى الغضب الشديد إذا تفكهوا أو تندروا به حتى ولو على سبيل الاعزاز

وابتسم هنري لين عندما تذكر حادثاً وقع لابنه الوحيد وهو في سن التاسعة . فقد أصرت أمه أن يستأذن من الامبراطورة الوالدة في اصطحابه معها الى هناك . وأذنت الامبراطورة الوالدة على غير العادة لأنها أرادت أن ترى كيف يكون الأطفال الأجانب . وفي يوم شديد البرد ذهب وليم مع أمه

وانتظر معها بضع ساعات في حجرة مثلوجة الهواء . وعند الظهر أدخلهما خصي طويل القامة الى الحضرة . ومشى وليم خلف أمه . ثم انحنى كما أمره الخصي انحناء عميقاً أمام المرأة العجوز الجالسة فوق عرش التنين المرصع بالجواهر الساطعة . وكانت الامبراطورة منشرحة المزاج . والشمس تسقط على أثوابها المذهبة ويديها الغاصتين بالجواهر الثمينة . وراح وليم يحملق في كل شيء فيها إلى أن ثبتت نظراته على وجهها المخطط وعينيها الكبيرتين وشعرها الحافل بالماسات البراقة . وتوقع الحاضرون جميعاً أن يثور غضب الامبراطورة لهذه الجسارة . ولكن غضبها لم يثر لأنها قرأت في عيني الصبي الأمريكي الوسيم إعجاباً شديداً يصل الى حد التقديس والذهول . فسرها ذلك وضحكت . وإذا ضحكت الامبراطورة وجب على الجميع أن يضحكوا . وقد ضحكوا فعلا قاعدا وليم الذي ظل يحملق فيها إلى أن تغيرت سحنة الامبراطورة فجأة وحركت أصابعها من فوق ركبتيها ثم أشاحت برأسها ، فأسرع كبير الخصيان باخراجهما

وفي البيت راح وليم يسأل أباه :

— لماذا غضبت الامبراطورة مني ؟

— ومن الذي يستطيع أن يعرف سريرة الامبراطورة ؟

فأسرعت مسز لين تقول لولدها :

— يا وليم . تذكر جيداً أنك الصبي الأمريكي الأوحد الذي سمح له أن يرى جلالة الامبراطورة الوالدة . هذا هو الشيء المهم . أليس كذلك ؟

ولم يعجب الدكتور لين هذا الاتجاه فذكرها قائلا :

— يا هيلين . الجميع في نظر الله سواسية

— أنا أعرف هذا طبعاً . ولكننا لسنا الله . والامبراطورة هي الامبراطورة . ولا فائدة في أن تزعم أن وليم لم يحظ اليوم بشرف عظيم . لأن الواقع أنه حظى فعلا بهذا الشرف

وتنهد الدكتور لين حين فكر في أمر ولده . وخشي أن يشب دنيوياً كوالدته . فهو قد سمي وليم على اسم والد هيلين لا على اسم والده هو وشب ذكياً مختالا . وهو لا يدري إن كان للفتى قلب رقيق أم لا ، فذلك شيء

ألم يجربه . ولكن ربما لم تعرف قلوب الصبيان الرقة إلا بعد أن يرطبها ندى الشباب . وتذكر الدكتور لين نفسه وكيف كان صبياً عنيداً جامد الحس الى أن ناهز العشرين وأدرك فجأة أن الحياة منحة فى يده أن يحسن استخدامها و يهدرها . وفى تلك اللحظة من شبابه خاطبه الرب



بدأ العشاء بدقات الطبل الصينى التقليدى فهبط الدكتور لين السلم الفخم المكسو بالسجاد وهو لا يدرى كيف يبلغ أخبار الخطر الى أسرته . إن السفارة الأمريكية ستتخذ التدابير طبعاً ، ولكن هل ينتظر حتى ذلك الحين ؟ إن وليم على أهبة دخول الكلية . وهيلين طال شوقها لقضاء الصيف فى الوطن . . .

ودخل قاعة المائدة حيث كانت الأسرة فى انتظاره ، وجلس على رأس المائدة البيضاوية التى بسط فوقها مفرش من التيل الفاخر المطرز بأيدى الراهبات الكاثوليكيات الصينيات بحيث لم يتكلف شيئاً كثيراً مع أنه يساوى الشىء الكثير . وهو ميال دائماً لإرضاء نزعات الترف والبذخ فى حدود المعقول تقرباً اليها بعد الذى أقبلت عليه من التضحية فى سبيل الزواج منه فقطعت نفسها عن مباهج نيويورك وعن أهلها وصديقاتها

وطوى الدكتور لين منشفته وردد طرفه بين أعضاء الأسرة . إن روث تزداد مع النمو جمالا ، فهى أشبه بأهله . أما وليم وهنرييتا فأشبه بأمهما . وهنرييتا على الخصوص ذات قلب طيب محب للخير . وهش فى وجوههم مسروراً ثم قال :

— مارأى أسرتى فى تمضية هذا الصيف فى الوطن ؟

فصاحت زوجته متهللة :

— ولكنك يا هنرى قلت من قبل إن هذا غير ممكن

— يمكننا أن نؤجر منزلنا الصيفى على الشاطىء ونستفيد بإيجاره فى نفقات سفركم

فقالت هنرييتا بصوتها الخفيض :

— أنا لا أريد أن أذهب

أما مسز لين فقالت :

— أتعتقد أن وليم على استعداد لامتحان دخول هارفارد ؟

— أعتقد يا أماه أنى مستعد

والواقع أنه كان سعيداً بالتخلص من معاشرة الطلبة الأنجليز المتعجرفين الذين مازالوا يسمون الأمريكيين جميعاً بالعصاة . والمرسلين بالكلاب الصفر . . !

وأخيراً لم يستطع الدكتور لين أن يكتم الحقيقة فقال :

— يجدر بى أن أخبركم ، فالحالة الحاضرة لاتروقنى كثيراً . وهناك تدابير خفية تتخذ فى الأقاليم . والامبراطور الشاب اختلف مرة ثانية مع الامبراطورة العجوز لخبسته . والشائع على الألسنة أنها قررت قتل أساتذته لتشجيعهم إياه على اعتناق الأفكار الغربية . ولكنها مضطرة مقابل ذلك أن ترضى وزراءها الغاضبين لما منحته للأجانب من امتيازات ولاسيما الألمان . وليس من المستبعد أن تنبت فى رأسها الأحمق فكرة استئصال جميع الأجانب من بلاد الصين . ولهذا لا أريد أن تكون أسرتى هنا

وازداد شحوب وجهه الأبيض ، مع أنه تظاهر بالاستخفاف . فقالت زوجته :

— كان اعتقادى دائماً أن الصينيين يكرهوننا

— أنا لا أعتقد أنهم يكرهوننا

— ألم يقتلوا المرسلين الألمان ؟

— كان هذا حادثاً عرضياً كما قلت لك يا هيلين من قبل . فقد صادف القراصنة مدينة بها المرسلون الألمان . فقتلوهم فيمن قتلوا

— ولكن حق القراصنة ليس لهم حق فى قتل الأجانب

وعندئذ قالت روث الصغيرة بصوتها الرقيق العذب :

— إن خادمنا وانج صينى وهو لا يكرهنا يا أمى

— لأننا ندفع له نقوداً . . .

وعندئذ وجد الدكتور لين نفسه مضطراً لتصحيح أخطاء زوجته حرصاً على فهم أولاده :

إن كان الصينيون يشعرون بالعداء للأجانب ، فذلك فى الواقع نتيجة لسلوك الألمان . فقد استولوا على الموانى وطلبوا رخصة باستخدام الخليج كله ، ثم طالبوا بغرامة ثقيلة جداً متعللين بمقتل المرسلين الألمان . ثم هناك أيضاً سوء تصرف الروسيين ، ثم الانجليز ، ثم حكومتنا نفسها . فهذه الأسباب كلها وراء كل ما يسمى بحركة العداء للأجانب . والصينيون معذورون فى كراهتهم لتجزئة بلادهم والتهامها قطعاً

فقاطعته زوجته محتدة :

— أنت طبعاً ياهنرى ترى الصينيين دائماً على صواب . ومادام هناك خطر فانى أحب أن أسافر فوراً . بيد أنى لن أسافر بدونك . ولن أسمح لك بتضحية نفسك فى سبيل هؤلاء الناس ، فواجبك الأول نحو أولادك ونحوى

— لا أظن أنى أستطيع السفر . بل لا أظن أنه يجوز لى أن أسافر . فالصينيون المسيحيون يتوقعون منى أن أبقى معهم . لأن عصابات الرجعيين ستكون حرباً عليهم كما هى حرب علينا حين يفلت الزمام . وبطبيعة الحال سيحمينا جنود القنصلية . ولكنى لا أريد لك وللأطفال أن تواجهوا خطر الحصار . وفى الوقت نفسه لا يجدر بى أن أهرب . ذلك شيء يستحيل أن يهضمه ضميرى . فواجبى نحو الله يأتى أولا

وساد الصمت بين الأولاد . فقد أدركوا من لهجة الحزم التى تكلم بها والدهم على غير عادته أنه قد وطد النفس على خوض ملحمة كلامية حادة مع أمهم . وهم يعرفون بالتجربة المتكررة أن الغلبة فى النهاية لها . ولكن حين يحشر والدهم الله فى الحديث منذ بداية المناقشة فالنصر فى النهاية سيكون له . فهو بمفرده ضعيف أمامها . أما تحت تلك القيادة الربانية فهو قادر على الصمود أمام كل شيء . حتى أمامها !

وصح ما توقعوه . فبعد بضعة أيام كانت مسز لين قد أتمت استعدادها للرحيل . وكان اليوم يوم سبت والدكتور لين عاكف على كتابة عظة يوم الأحد . وقد اختار لذلك آية عجيبة تناسب الظرف ، وراح يكد ذهنه فى استخراج معانيها الغامضة . عندما سمع صوت زوجته تناديه بصوتها المرتفع . ثم انفتح باب مكتبه على الفور ورأى وليم . وكانت ملابس الغلام معفرة بالتراب ،

ووجهه ملوثاً بالطين ، وفى جبينه شج . وقد توقف عند العتبة . فنهض الدكتور لين من مقعده صارخاً :

— وليم ! ماذا حدث لك ؟

فتحركت شفتا وليم وبقى وجهه كله جامداً :

— الناس . . . الغوغاء

— ماذا تقول ؟ . .

ثم أسرع الى البهو فوجد زوجته جالسة هناك فوق مقعد صينى دقيق الصنع وكأنها لشدة شحوبها مغمى عليها . فصاح بها :

— هيلين . ماذا ؟ . .

— كان هناك شغب . وحسبت أننا لن نستطيع الافلات . ولولا « لاولى » ما نجونا

— وأين حدث ذلك ؟

— عند دكان الخياط فى شارع هاتامين حيث أذهب دائماً لشراء ملابس وليم . فهو كما تعلم كان فى حاجة الى بدلة جديدة . . .

— وما الذى صنعه وليم ؟

فقد أدرك الرجل بغريزته أنه لا بد أن أحداً صنع شيئاً . فالغوغاء لا يتجمعون لغير سبب ولا يعتدون بغير استفزاز . فانتحبت مسز لين وقالت :

— لا شىء . لا أدرى ! كان هناك رجل نائم عند الريكشا عندما خرجنا من دكان الخياط . كان هذا الرجل متسولا فدفعه وليم بقدمه . لم يرفسه بل دفعه فقط . فهجم علينا الناس من جميع الأبواب . آه يا هنرى ! كم أريد أن نذهب من هنا جميعاً !

فجعل يسرى عنها ويهدىء روعها بلطف ، وأمر وانج بعمل الشاى ثم قال لها :

— إنى أريد طبعاً أن تذهبوا . فالجمهور الآن شديد الحساسية . ولا تخرجى مرة أخرى يا عزيزتى وإلا حدث شىء خطير حقاً

— إن الذى حدث شىء خطير فعلا . وليتك رأيت وجوههم المخيفة . . .

ولـكن أين وليم ؟ ابحث عنه حالا يا هنرى . لقد دفعوه فسقط فى التراب . ولو لم يبادر لاولى بانقاذه لوطئوه بأقدامهم إلى أن مات

ــ اذهبي الآن الى حجرة الجلوس وانتظرى الشاى

لقد كان مضطرباً جداً ، ولـكنه لم ير داعياً للافصاح عن قلقه . وكم من مرة نبه وليم وحذره من لمس الصينيين . فهم يعتبرون اللمس إهانة للكرامة . وقد حدث عندما كان وليم فى السادسة من عمره وقد أخذه معه للفرجة على مهرجان رأس السنة أن جذب الصغير ذيل رداء رجل مسن كان واقفاً أمامه عن غير قصد لأنه أراد المرور . فثار غضب الرجل ، واضطر الدكتور لين للاعتذار مراراً وتكراراً . ولم يشفع لوليم إلا صغر سنه

وبحث الدكتور لين عن وليم فوجده فى حجرته يبدل ثيابه فى الطابق العلوى بعد أن وضع ضمادة على جبينه . وسأله أبوه :

ــ هل عقمت هذا الجرح أولا ؟

ــ أجل يا سيدى . تعقيما كافياً

وكان وجه الغلام مازال شاحباً . فقال أبوه :

ــ إياك مرة أخرى أن تمس صينياً . أسامع أنت ؟

ــ إنه لم يكن سوى متسول اتكأ على الريكشا فدفعته

فصاح أبوه بإصرار وبصوت عال :

ــ أياً كان الشخص أو كانت صناعته ، لا تمس صينياً أبدا

ودار وليم على عقبيه فأعطى ظهره لأبيه وبدأ يربط رباط عنقه . وكانت يداه ترتعدان ولهذا أعطى أباه ظهره لكى لا يراهما . وحق له أن يرتعد فقد هجم الرعاع عليه وهم لا يعلمون عنه شيئاً . وهو الرجل الأمريكى الأبيض ابن السادة الأكرمين . إنه لن يشعر بعد ذلك بالأمان أبداً وهو فى بلاد الصين . وكم يريد أن يفارقها فلايعود اليها ويبتعد إلى الأبد عن هذه القطعان من الغوغاء

وفى الاسبوع التالى كان قد غادر مع أمه وأخته بكين

ثورة فى بكين

احتفلت العاصمة الامبراطورية بعيد الربيع الرائق بالبهجة المألوفة والانطلاق ، فالرجال يطوفون بالشوارع وفى أيديهم أقفاص العصافير ، أما النساء فيحملن أطفالهن . وفوق أبواب البيوت علقت الأغصان الخضراء . كما أمر البلاط الامبراطورى باقامة مهرجانات عظيمة بمناسبة العيد . وصدرت ارادة الامبراطورة الوالدة بتعميم الملاهى المسرحية

كان كل شىء فى المدينة الكبيرة يبدو هادئاً مستقراً . ومع ذلك فكل صينى بلغ الحلم كان يعلم ان ذلك الهدوء الظاهرى لا يدل على بواطن الحقيقة . فقد أعربت الامبراطورة عن حقيقة شعورها فى شهر ديسمبر السابق عند ما قتل المرسلان الألمانيان فى مقاطعة شانتونج . وطلبت الحكومات الأجنبية عزل الحاكم يوسيين . وتواترت الأخبار من دوائر القصر فى جميع أطراف المدينة عن طريق الخصيان والخدم بأن الامبراطورة العجوز رفضت فى أول الأمر سحب يوسيين . ثم أحاط بها وزراؤها وحدثوها عن حجم المدافع الأجنبية وعدد الجنود الواقفة على قدم الاستعداد تحت راياتها . وعندئذ تراجعت وعزلت يوسيين . بيد انها منحته حكم إمارة أكبر من مقاطعات الداخل هى امارة شانسى وبذلك رفعته فوق مرتبته ، وضحك الناس ساخرين من الأجانب ومعجبين بدهاء امبراطورتهم وعنادها

وكان الربيع فى تلك السنة من أجمل ما عرف فى الصين الشمالية . فاسترد الأمريكيون المقيمون فى بكين طمأنينتهم لما بدا لهم من حرارة الشمس وازدهار الشجر المثمر ودماثة الجماهير المرتاحة فى الشوارع . وتقرر سحب الجنود الذين أتوا لتعزيز الحاميات القنصلية بعد أن دفعت الحكومة التعويض المطلوب عن مقتل المرسلين الألمانيين . ومع هذا فقد حذر القناصل جميع الغربيين من البقاء

فى الشوارع أثناء الاحتفالات تجنباً لكل احتكاك . بيد ان اليوم مر بسلام فخرج الأجانب بعد ظهره من مكامنهم وتجولوا يتشمسون

ولم يلحظ كليم ميلر وهو يتجول فى الشوارع ذلك اليوم أى شىء غير عادى. وكان كليم منذ تشاجر مع الفتى الصينى وتدخل وليم لين فى الأمر قد قاطع جميع البيض فيما عدا أسرته فلم يسمع بأنباء النذير . ولئن شام القلق فى والده فعهده به قلقاً على الدوام اما لنقص فى الخبز أو مسألة من مسائل التبشير . وكان من جانبه يجتهد فى مغالبة جوعه لكى لا يتألم أبوه الذى كان يحبه كثيراً ويرى فيه طفولته . فمعظم اعتماده على تلك الحلوى والفطائر الوطنية التى يجدها دائماً على المائدة فى منزل المستر فونج المتصل بدكانه حين يذهب لتدريس ابنه الأكبر

وكان المستر فونج يلاحظ نحافة الصبى الأمريكى فتأخذه به الشفقة . ويقول لزوجته أم أولاده مسز فونج :

— انظرى كيف يأكل الأجنبى الصغير الحلوى ، انه لا يظفر بكفايته من الطعام . فضعى شيئاً من الفطائف المحشوة باللحم فى الطبق غداً واسلقى بيضاً وقشريه ودعيه على المائدة قبل موعد دخوله كأنها أصناف من الحلوى المبذولة للرائح والغادى

وكانت مسز فونج سيدة بوذية حرام فى شريعتها أكل اللحم والبيض . ولكنها كانت تعتقد ان الأجانب لن يدخلوا الجنة على كل حال . ثم انها ستثاب ثواباً لا شك فيه إذ تطعم انساناً لا أمل فى أن يرد لها الصنيع بمثله ، فأقبلت على تنفيذ أمر زوجها عن طيب خاطر . وهكذا كان كليم يجد فى كل يوم لوناً من طيبات الطعام يحشو به معدته الخاوية . وكان تلميذه يوسان يحثه على الأكل حثاً بتكليف من والدته . فكان كليم يأكل وهو يحدث نفسه :

— من يدرى ؟ لعل هذا أيضاً من تدبير الله ؟

بيد انه كان يجد صعوبة فى اعتقاد ان الرب يسخر الكفار لتحقيق مراحمه. وبذلك كان إيمانه يزداد تزعزعاً فى كل يوم لولا شعوره بحاجة جسمه النامى الى الطعام وانه كان يتضور جوعاً لولا هذه النجدة التى لا يمكن أن يعزوها إلا للرب

لم يتحدث اليه أحد عن الامبراطورة ومايدور فى رأسها . ولم يخبره أحد

عن المطالب الجديدة التي تقدمت بها إيطاليا وألمانيا . فألمانيا بلد لا يعرف عنه شيئاً مطلقاً . أما إيطاليا فلا يعرف عنها شيئاً إلا ان خريستوف كولمبوس إيطالي. كذلك لم ينبئه أحد بنبأ البوارج الحربية التي حضرت الى شواطىء الصين من بريطانيا وألمانيا وفرنسا . فعالمه الخاص هو تراب بيكين . وحين يحلم كان حلمه دائماً حول مزرعة في مكان بعيد اسمه بنسلفانيا لا يعرف عنه شيئا سوى انه مكان كبير أكبر من المدينة . ولم يكن يجسر على سؤال والديه لأنه عرف منذ صغره ان السؤال عن هذا المكان يورثهما الحزن والغم . بل ان والدته في بعض الأحيان كانت تنتحب باكية

انتهى المهرجان وتوالت أيام الربيع حتى انقضى شهر مايو وحل شهر يونيه. وأخذ الناس يأكلون المشمش الأصفر الكبير . وذات صباح وضعت مسز فونج طبقاً كبيراً منه على المائدة وقالت لكليم :

— كل هذه أيها الأخ فهي تنقي الدم

فأكل ثمرتين استطابهما . ثم فعل شيئاً ما كان ليستبيحه في الظروف العادية، إذ خبأ في جيبه ثمرتين اثنتين ليعطيهما أختيه الصغيرتين حين يعود من الدرس الى البيت بشرط أن تأكلاها خلسة حتى لا يضبطهما الوالد ويكتشف في مسز فونج مورداً جديداً للطعام ووسيلة لتحقيق مراحم الرب عليه وعلى ذويه . فمنذ سمع من فم وليم لين ذلك النقد المر لمسلك والده وهو لا يحتمل التفكير في أن يستجدي والده من الصينيين . ولكن ما رآه من تلهف أختيه الصغيرتين حين اختطفتا منه المشمشتين جعله لا يستطيع منع نفسه في اليوم التالي من إخفاء كعكات صغار في جيوبه وفطيرتين محشوتين باللحم . وبدأت حدة سخطه ولومه لأبيه تخف كثيراً . بل بدأ يعذره في كل ما يصنع من أجل طعام الأسرة . فهو قد وجد نفسه يسرق في سبيل أختيه . وهل السرقة ليست أسوأ من الاستجداء باسم الرب ؟

وذات صباح دخل مستر فونج الحجرة المشمسة وجلس ثم جمع عباءته الحريرية السوداء الكالحة على ركبتيه . ونظر الى كليم ثم قال :

— عندي ما أقوله لك أيها الأخ الصغير

فاضطرب كليم لأنه حسبه سيحدثه عن سرقاته وسأله بخوف :

— وما ذاك أيها الأخ الـكبير ؟

فقال الرجل برقة شديدة :

— لا تكف عن الأكل . . كل وأنا أتحدث اليك

ثم أمر ولده يوسان أن يذهب ويلعب . وزاد اضطراب كليم لأنه خشى أن يستغنى الرجل عن خدماته ، فمن أين يجىء بعد ذلك الـكتب والطعام ؟

وزادت ريبته حين نهض فونج فأغلق البـاب بالمزلاج ثم جلس ملتصقاً بكليم بحيث تخرج الـكلمات من شفتيه الى أذنى الولد الأبيض ، ثم أفضى اليه بهذه الـكلمات المروعة القليلة :

— إن الامبراطورة العجوز على وشك أن تأمر بطرد جميع الأجانب من مدينتنا ، بل من البلاد كلها

— ولـكن لماذا ؟

— خفض صوتك . ألم تسمع شيئاً ؟ ألم ينذروا أباك ؟ يجب أن ترحلوا بسرعة وإلا . . . .

ثم مر مستر فونج بسبابته على عنقه علامة على الذبح

— وماذا فعل الاجانب ؟

وفى الوقت نفسه شعر بالبرودة تسرى فى عظامه وارتجفت ركبتـاه ، فتنحنح مستر فونج وقال له :

— إن الحـكومات الأجنبية أخذت كما تعلم تتقاسم بلادنا كأنها شمامة

— ولـكننا أمريكيون ولم نأخذ شيئاً

— أنا أعلم أنكم أمريكيون ، والأمريكيون لا يقتطعون شيئاً بالسكين لأنفسهم . بل يأتون بعد أن يأخذ كل واحد نصيبه ويقولون لنا : « مادام كل شعب قد أخذ قطعة فنحن أيضاً يجب أن نأخذ مثلهم شيئاً على سبيل الهدية »

— إنى لم أسمع شيئاً من هذا

— ليس هناك متسع من الوقت كى أخبرك بكل شىء الآن فاسمع جيداً هذه الـكلمة الواحدة أيها الأخ الصغير . اذهب الى البيت وأخبر والديك أن يهربا الى شنغهاى فالوقت عصيب ولا تتأخروا حتى يقطع الطريق . ولى قريب

يعمل فى القصر وما سمعته منه يجعلنى أخشى أن تقع الواقعة قريباً جداً

— ولكن أبى لن يرضى أن يذهب . فهو يؤمن بالله

— ليس هذا وقت الايمان بالله . قل له ينقذ أسرته أولا

ثم نهض الرجل وفتح درجاً أخرج منه منديلا كبيراً أزرق من القطن فملأه بالكعك وقال له :

— خذ هذا معك . وتذكر أنى لا أكرهك . ولو أننى تجاسرت لدعوت أسرتك للاقامة هنا . ولكن هذا لن ينفع أسرتك وسيقضى بالهلاك على أسرتى معكم . وقد أبلغت إنذاراً نهائياً بشأنك . فلا تحضر بعد الآن أيها الأخ الصغير . واأسفاه !

ثم أخذ كليم من يده وأخرجه من باب خلفى صغير ، فوجد كليم نفسه فى زقاق خرج منه الى الشارع الواسع . وكان الشارع هادئاً جداً يصعب على العقل أن يصدق أن تحت هدوئه بركاناً يتهيأ للثوران . ولاحظ كليم أن الوقت هو وقت ذهاب الطلاب الى المدارس ومع هذا لم يلمح تلميذاً واحداً ، أما الدكاكين فلا شك أنها أغلقت أبوابها فى ساعة الضحى . فأخذ يحث الخطى نحو بيته فى شوارع مقفرة كان المفروض فى الأيام العادية أن تموج بحركة المعاش . ولكن قبل أن يصل الى شارعه صدرت إشارة لم يستطع أن يسمعها أو يراها ولكنه رأى أثرها الحاسم ، إذ انشقت الأرض عن آلاف من الناس . هم شرار القوم . أما الخيار فقد قبعوا داخل بواباتهم . فجعل كليم يتوارى بالحيطان وبمداخل البيوت كلما سمع صوتاً كهدير الموج يقترب من حى القنصليات الأجنبية الذى يقطنه أيضاً المرسلون الأثرياء من أمراء الكنيسة . وجعل يعلل النفس بأن الرب سيحمى من يحملون صليبه

وفى هذا الوقت كان المستر فونج ينظر من نافذته مستطلعاً الأحوال فى الشارع لأن ابن عمه كان قد زاره فى منتصف الليل وأخبره بالمؤامرات التي كانت قد حيكت بين جدران القصر . ولذلك قرر مستر فونج إغلاق دكانه ذلك النهار وأن يتجاهل كل ما يجرى فى المدينة . إنه رجل شجاع ولكنه ليس طائشاً . وهو يعلم أن المشعوذين الدينيين لن يصمدوا لرصاص الغربيين ، بيد أن النهاية المحتومة ستستغرق بعض الوقت . والامبراطورة العجوز لديها

من العناد الأخرق ما يجعلها تستميت إلى أن ترى الجيوش الأجنبية تدخل مدينتها المقدسة فعلا . ورضى عن نفسه لأنه كان قد خزن فى الدار مؤونة شهرين من الدقيق . كما أن زوجته تربى فى الفناء الخلفى إحدى عشرة دجاجة تزودهم بالبيض . وفى جانب آخر من الفناء زرع الخبازى . فلن يجوعوا مدة الاضطرابات

وانقضى النهار وهو معتكف بين دفاترحساباته وأفكاره الخاصة ، ثم نام مبكراً ليدخر قوته للأيام العصيبة القادمة . وإذا بزوجته تصرخ فى أذنه فى منتصف الليل فتوقظه :

— قم يا فونج . فالمدينة تحترق

فقام مسرعاً ولبس خفيه وخرج إلى الفناء فاذا السماء كلها حمراء والليل مضىء كأن الوقت نهار . وصحا الأطفال أيضاً وجعل الجميع يصرخون فزعاً فنهرهم قائلا :

— صه ! أتريدون الجيران أن يظنوكم تبكون على الأجانب ؟

فصمتوا فى الحال وتسلل هو إلى دكانه ففتح بابه مقدار قيراطين ليتجسس الطريق فتبين نحو عشرين حريقاً فى الحى الافرنجى فأدرك أنها بيوت وكنائس النصارى ، فأغلق الدكان ثانية وعاد إلى أسرته فقال لهم مطمئنا :

— اذهبوا إلى فراشكم . فمن حسن حظنا أننا لسنا نصارى وسنعيش



أيقظ كليم والده لأنه لم يعرف ماذا يصنع . وكانت الحرائق بعيدة كل البعد عن كوخهم فى حى القنصليات . ولم يكن كليم قد غادر البيت منذ أنذره فونج . وحق والده لم يخرج إلا فى الليل ليستجدى على ما يظهر من بعض المرسلين لأنه عاد بثلاثة أرغفة من الخبز الافرنجى وبأطعمة محفوظة فى العلب . وفى علبة منها زبد أسترالى ولم يكن كليم قد ذاق الزبد فى حياته . فتناول كل واحد منهم فى تلك الليلة شريحة من الخبز عليها طبقة من الزبد الأصفر استطاب مذاقها كثيراً . وبعدها ذهبوا إلى الفراش عقب تلاوة الصلاة إلى أن أيقظه احمرار السماء فخرج إلى الفناء ثم إلى الشارع الضيق واستولى عليه الرعب لما رأى وأفزعته وحدته فأيقظ أباه . ففتح الرجل عينيه على الفور .

وأشار اليه كليم أن يأتى معه وهمس فى أذنه :

— حرائق فى المدينة

فخرج الرجل حافى القدمين بملابسه الداخلية ، ووقفا يتطلعان معا الى السماء ، ثم وضع يده على كتف ولده وقال له :

— لا توقظ أمك والبنتين . فالمنظر فظيع . أما أنا فيجب أن أخرج إلى الشوارع يا كليم لأرى ماذا أستطيع أن أصنع . فلابد أن الناس يتعذبون كثيراً فى هذه المحنة . وامكث أنت هنا لتكون بجانب والدتك وأختيك

— ناشدتك الله يا أبى لا تذهب . فكيف أستطيع العثور عليك إن حدث لك شىء ؟

— سوف لا يحدث شىء . فسنصلى معا قبل أن أذهب ، بعد أن أرتدى ثيابى طبعا ، فلا يليق بنا أن نكلم الله وأنا بملابسى الداخلية

وبسرعة عاد الأب فى ثوبه القطنى الممزق وهتف بابنه هامسا :

— على ركبتيك أيها الولد العزيز

ولأول مرة ركع كليم عن طيب خاطر . لأنه شعر أنهم الآن بلامعين إلا الله

وبعد صلاة قصيرة حارة نهضا . وشد الوالد على يد كليم بقوة ثم مضى .

ورقد كليم فى فراشه مفتوح العينين إلى قرب الفجر حيث سمع وقع أقدام أبيه عند العتبة فجلس وشاهده يدخل وجسمه يتصبب عرقا والدخان قد سود وجهه . فقال له :

— يجب أن أغتسل قبل أن ترانى والدتك . هل استيقظت ؟

— كلا . سآتيك بالماء فى الفناء الداخلى

— لقد اقتحم البوكسر المتعصبون المدينة وأباحت لهم الامبراطورة العجوز دمنا . فنحن الآن بين يدى الرب لأننا شهدنا للمسيح وقد توجهت إلى بيت الأخ لين . فهو أرق جميع المرسلين قلباً وهو الذى أعطانى فى المساء الطعام الذى اتيتكم به وأعطانى أيضاً مبلغاً من المال . فهو نسيج وحده بين سائر زمرته . وقد وجدته بمفرده فى الدار لأنه بعث بأسرته إلى شنغاى ، فوصلوها قبل قطع الخط الحديدى . ووجدته يأوى عنده الصينين المسيحين . يد

أنهم الآن يتسللون من بيته ويتنصلون منه ، فمن الخير لهم أن يكونوا مع بني جنسهم

وساور الخوف كليم لأن قطع الخط الحديدى يعزل بكين عن العالم . فنظر اليه أبوه بحنان ثم قال له :

— أخائف أنت يا كليم ؟ لا تخف يا ولدى فالرب هو قوة حياتنا . فممن نخاف ؟

ولم يجبه كليم . وإنما أرسل من قلبه صلاة غاضبة إلى السماء التي انعقدت فيها سحب الدخان مع بواكير أشعة الصباح :

— إلهى . إن تخذل أبي فلن أصلي بعدها أبداً !



استقبل مستر فونج فى تلك الليلة أيضاً ابن عمه العجوز الموظف فى القصر وأخبره أن الإمبراطورة عزلت وزيرها العاقل الأمير شينج وولت مكانه ثلاثة وزراء حمق من حاشيتها . ومع ذلك حدث انقسام فى مجلس الامبراطورة لأنها وجدت من يعارضها فى سياسة عداوة الأجانب مجتمعين . بيد أنها استبدت برأيها وانحازت لصفوف البوكسر

وجعلت الحالة تزداد سوءاً يوماً بعد يوم إلى أن أيقظت والدة كليم ابنها قبل شروق الشمس ذات يوم فلما فتح عينيه وجدها واضعة سبابتها على فمها . فقام وتبعها إلى الفناء وقالت له :

— يا عزيزى كليم ، لم يعد عندنا شيء نأكله . وأخشى أن أصارح أباك فيحزن

— عجباً يا أماه . هل انتهى كل ذلك الخبز ؟

— نعم ، وكل العلب أيضاً

وأدرك ما ترمى اليه ، وأنها تخشى أن تصارحه ، فتطوع قائلا :

— إذن سأذهب وأبحث عن شيء نأكله يا أماه

— كم أنا خائفة عليك يا كليم . ولكنك إن لم تجازف بالخروج فسيجازف أبوك . وأنت أقدر منه على التسلل بين الأزقة . أما هو فقد يقف هنا أو هناك ليصلي أو يعظ

— لن أفعل شيئاً من ذلك

— إذن البس ملابسك الصينية

ثم فجأة انحنت فوق رأسه وقبلتها وقالت بانكسار :

— سامحني يا كليم

— ليس هناك ما ألومك عليه يا أماه فليس الذنب ذنبك

وخرج وهو لا يدرى أين ينشد الخبز فى هذه المدينة الواسعة . إنه لا يستطيع أن يذهب الى مستر فونج . إذن ليس أمامه سوى أن يقصد الدكتور لين الذى يعيش بمفرده . لقد أعطاهم طعاماً من قبل . وسيعطيهم عن طيب خاطر . ولم يجد غضاضة فى الذهاب مادام وليم ليس هناك

وقصد إلى غايته مخترقاً الشوارع الخلفية الخالية . فلما وصل الى البيت الكبير وجد البوابة مقفلة فطرقها بيده طرقاً هيناً . فانفتحت فيها ثغرة مربعة وأطل عليه وجه البواب . فلما عرف فيه غلاماً أجنبياً فتح البوابة وأدخله . وعندئذ سأله كليم :

— هل المعلم فى البيت ؟

— إنه دائماً فى البيت فى الفترة الراهنة . فماذا تريد منه ؟

— أريد أن أسأله عن شىء

وفى الأحوال العادية كان البواب لا يسمح لأحد بالدخول . أما الآن فهو لا يوصد الباب فى وجه إنسان أبيض . فجميع الأجانب فى خطر دائم . وإنها لحماقة منه أن يبقى مع سيده الأبيض لولا تعلقه الشديد به . ثم إنه لا زوجة له ولا ولد . وحياته شخصياً لم تعد تساوى الكثير . ولهذا تقدم كليم نحو البيت الكبير المربع وطرق الباب الأمامى . ففتح الدكتور لين بنفسه وأدهشه أن يرى أمامه غلاماً أجنبيا . ثم سأله :

— هل أعرفك يا بنى ؟

— لا أظن هذا . ولكنى أنا أعرفك يا سيدى . أنا كليم ميلر

— طبعا طبعا . آل ميلر . أعرف والدك . ادخل . فما كان لك أن تخرج إلى الشارع

— إن أبى لا يعرف أننى خرجت

— أسرتى فى شنغاى . وأنا أيضاً أستعد للرحيل . هل كنت تعرف ابنى وليم ؟ تفضل بالجلوس فى هذا المقعد

— رأيته مرة واحدة

ولما جلس كليم على طرف الكرسى راح الدكتور لين ينظر إليه بعينين حزينتين . ولولا ما يبدو عليه من شرود لكان وجهه فياضاً بالحنان

— وما الذى أتى بك ؟

— ليس عندنا خبز

قالها ببساطة ثم اندفع الدم الى وجهه الشاحب وصمت قليلا ثم استطرد :

— أنا أعلم أنك ساعدتنا من قبل يا دكتور لين . وما كنت لآتى إليك لو أننى عرفت مكاناً آخر أطرق بابه لهذا الغرض

— لا بأس لا بأس . إنه يسرنى كثيراً

فقاطعه كليم قائلا :

— كلمة أخرى يا دكتور لين . إننى حين أسألك طعاماً لا أعتقد كما يعتقد والدى أنها عطية الله ، كلا ، بل هى عطيتك أنت . ثم إنى لم آت لأسأل شيئاً لنفسى فقط ، فما كنت أهتم كثيراً لولا أن هناك أمى وشقيقتى الصغيرتين

— لا بأس لا بأس . فعندى من الطعام أكثر من حاجتى.عندى أطعمة كثيرة معلبة . فقد وصلت الىّ رسالة كبيرة منها قبل قطع الخط الحديدى بيوم واحد . ولكن الطباخ غادرنا بالأمس ولا أدرى أين الأشياء بالضبط . ولست ألومه فالوقت عصيب

وشرع الدكتور لين يفتش بنفسه بين التراب المتراكم فى المطبخ إلى أن وجد سلة كبيرة . وعندئذ سأله :

— ولماذا لم تذهب مع وليم يا سيدى ؟

— لم أذهب من أجل أبروشيتى . فالصينيون المسيحيون يعانون محنة شديدة . ولا أستطيع لهم شيئاً أكثر من البقاء معهم . ها هى علب اللبن المحفوظ واللحم

وملأ له السلة الكبيرة ثم وضع منشفة مطبخ فوقها وهو يقول له :

— لا تحمل العلب مكشوفة لكيلا تغرى الناس بك . وكم كنت أتمنى

أن أبعثك فى الريكشا لولا أن سائقها لاولى تركنا أيضاً ولم يبق معى إلا البواب . وأنصحك أن تذهب إلى بيتك من أقرب طريق . أخبر والدك أن يأتى بكم إلى القنصلية إذا نشبت القلاقل ، ولا شك أن حكوماتنا سترسل جنوداً لاستنقاذنا . وربما كانوا فى الطريق

— أخشى أن أبى لا يمكن أن يقبل الالتجاء إلى القنصلية

— تنقصنى الشجاعة للتمسك بالايمان على هذه الصورة . وان قدرت على ذلك لنفسى فلن أقدر عليه حين يتعلق الأمر بولدى

وعند البوابة الخارجية صافح الرجل الوقور الغلام بعطف بالغ . وحملق البواب فى السلة قبل أن يفتح البوابة ثم دلف إلى حجرته وعاد منها بمجموعة من الأحذية البالية وضعها فوق المنشفة وقال لكليم :

— تظاهر انها قمامة . وإلا سرقوها منك

وأقفل الباب على كليم فوجد نفسه وحيداً فى الشارع والسلة الثقيلة على ذراعه وقد صار الوقت ضحى . وفى الشوارع زمر من الناس كلهم جنود يرتدون ملابس القصر الامبراطورى . فحاول أن يتجنبهم . وظن أنه أفلح فى ذلك لأن الضابط كان يضحك ويمزح مع بعض الجنود الذين يتفرجون على مدفع أجنبي فى يده . ثم لمحوا كليم وجروا وراءه . فبدأ يجرى . وفى ظرف آخر كان حرياً أن يتعقل فلا يجرى ويقف للتفاهم معهم بلسانهم . أما اليوم فهو ينشد الهروب ليخفى وجهه منهم فلا يروا عينيه الزرقاوين. واخترق الأزقة بسرعة إلى الشارع الذى يحد حى القنصليات من الشرق على أمل الدخول من باب القنصلية الأمريكية

وحين انعطف فى الشارع استوقفه موكب عربتين كبيرتين فيهما وجوه أجنبية متعجرفة لم يرها من قبل . وقبل أن يتسلل إلى زقاق آخر وجد نفسه محصوراً بين الجنود الصينيين وهؤلاء الأجانب . فسد الجنود الشارع واضطر حملة العربات أن يقفوا . وعندئذ رفع ستار العربة الأولى وأطل أجنبي برأسه فصاح فى الجنود :

— أفسحوا الطريق ! أنا فون كتلر السفير الألمانى فى طريق للاجتماع بالامبراطورة



« وأطلق كليم ساقيه للريح متجها نحو البيت مخترقاً شوارع مكتظة بالناس »

فانفتحت العربة الأخرى وسمع صوتاً أجش يحذر السفير . بيد أن التحذير جاء بعد الأوان . إذ رفع الضابط الصينى المدفع الأجنبى وصوبه إلى السفير الألمانى ثم أبصر كليم ضوءاً شديداً خر على أثره السفير قتيلا . وتوارى كليم وراء العربة وهو متشبث بالسلة ثم أطلق ساقيه للريح متجهاً نحو البيت مخترقاً شوارع مكتظة بالناس. وامتدت الأيدى فمزقت وانتزعت أغطية السلة فانكشف الطعام وإذا الأيدى القذرة تتخاطفه إلى أن فرغ ما فى السلة ، ثم وضعوا أيديهم عليه وسمع عشرات الحناجر تصرخ :

— شيطان أجنبى !

وأفلت منهم ثم انطلق يطلب النجاة وكأنما ركب فى رجليه جناحان . وتوارى داخل بيت مهجور إلى أن استشعر الأمان ، ثم خرج متسللا من جديد الى الكوخ . فوجد الباب مفتوحاً . ووقف مبهوتاً لا يدرى تعليل ذلك

وفجأة فطن إلى سائل داكن لامع تحت قدميه فوق تراب العتبة . فحملق فيه جيداً إلى أن أدرك عن يقين أنه دم . فاستولى عليه الرعب وشل تفكيره واندفع داخلا كالمجنون ، فاذا الأبواب كلها مفتوحة ، فاخترق جميع الغرف الى المخدع

وهناك وقف . فعلى أرض الحجرة يرقد أبوه غارقاً فى دمه الذى تفجر من رقبته وقد كاد رأسه ينفصل عنها لعمق الجرح . وكان ذراعاه مفتوحين وكذلك ساقاه . أما وجهه الذى نزف منه الدم كله فكان على رغم صفرته الميتة يفتر عن ابتسامته العذبة . ابتسامة الترحيب التى طالما منحها لكل من دخلوا بيته من الغرباء والأقارب . وهو الآن يمنحها للمرة الأخيرة لولده . ومن تحت جفنيه نصف المفتوحين كانت عيناه كأنما تنظران

ووقف كليم يحملق فى أبيه وقد منعته الصدمة من الصراخ . كان يعلم أنه مات . وكثيراً ما رأى موتى من قبل فى المجاعات والطواعين يملأون الشارع . لكن هذا الميت الموجود أمامه هو أبوه !

وتحشرج صوته ولهثت أنفاسه وهو يحاول أن يصرخ . ومن حسن حظه أن صوته لم ينطلق وإلا سمع وقضى عليه

وانتقل إلى الحجرة الأخرى حيث فراش والدته حيث وجد أختيه متعانقتين

بامهما . ولكن الرؤوس الثلاثة كانت منفصلة عن أجسادها . فوقف ينظر مفتوح الفم وعيناه تكادان تبرزان من محجريهما . لم يستطع الصياح أو الحراك . وأين تراه يذهب ؟

فكر فى كل مكان . فى الدكتور لين وبيته المتين . وفى القنصلية. ولكنه أدرك أنه لا أمان هنـا أو هناك فى النهاية . فدار على عقبيه واخترق الأزقة الخلفية المتعرجة متجهاً إلى دار المستر فونج



كان مستر فونج جالساً فى الحجرة الوسطى من داره صامتاً بين زوجته وبنيه . فقد استفاضت فى المدينة من دوائر القصر الامبراطورى ان اثنين من الألمان أطلقا النار على الشعب الصينى المسالم فرد العدوان جندى صينى شجاع فقتل أحد الألمانيين وجرح الآخر . وقد شك مستر فونج فى صدق هذه الرواية بيد انه لم يدر كيف يستخرج الحقيقة

— الرياح تعصف فلا بد للعشب من أن ينحنى . ولا بد لنا من أن نلزم الصمت محتمين بجدران بيوتنا الى أن تنجلى الغمة

وبلغ من تحرج الحالة أن المستر فونج كان خائفاً على ابنه الأكبر لأنه يتكلم اللغة الانجليزية ممـا قد يسبب هلاكه . ذلك ان الامبراطورة الأم أصدرت أوامرها فجر ذلك النهار بالقضاء لا على الأجانب فحسب بل على كل من شايع دينهم أو تكلم بألسنتهم أيضاً

وعلى حين فجأة سمع مستر فونج طرقاً خافتاً على الباب الخلفى . فرفع مستر فونج يده وساد الصمت المطبق وأرهف الجميع آذانهم !

— هذه يد واحدة لا أكثر . فلأفتح الباب . فربما كانت رسـالة من ابن عمى

وذهب الـكل وراءه . وقليلا قليلا فتح فونج البـاب ليجد أمامه كليم فى حالة يرثى لها . وتردد فى إدخاله . وصاحت به زوجته تحذره من ذلك . أما المسكين فقص عليه فاجعته فى والديه وشقيقتيه . فأدخله فونج على مضض ثم أغلق الباب . وكان الغلام قد تقيأ على ملابسه وأصبح وجهه يحاكى وجوه الموتى. وأخذ الزوجان يتشاوران فيما يصنعان به . وتساءل فونج :

— لماذا قتلوا ذويك ؟ لقد كان والدك فقيراً ضعيفاً طيب القلب

— وهل قتلوا أبي فقط ؟ لقد رأيتهم بعيني يقتلون سفير ألمانيا ولم أصدق بنجاتي من وابل الرصاص الذي انطلق في تلك اللحظة

واهتم فونج بما سمع ، فهذا هو شاهد عيان ينقل له حقيقة الحادث . وقص كليم الحادثة بحذافيرها . فلما فرغ هز فونج رأسه متأسياً وقال :

— لقد جنت هذه الامبراطورة العجوز ولاشك . أتراها تعتقد ان عقارب الساعة يمكن أن ترجع الى الوراء . أمن الممكن أن نعود الى عهود أجدادنا بينما العالم كله يتقدم الى الأمام ؟ لقد جعلت منا أضحوكة الأمم

ثم أخذ كليم من ذراعه الى داخل البيت وبدل له ملابسه وأدخله الفراش في حجرة داخلية ليست لها نوافذ وقدم اليه حساء ساخناً . وكان فمه مراً كالعلقم وليس في عينيه أثر للدموع . بل ان مثانته نفسها خلت من الماء لكثرة ما نضحه من عرق الخوف



لبث كليم مختبئاً بضعة أيام لم يعرف عددها لأن الظلمة كانت سائدة في الحجرة ليل نهار . أما مستر فونج فكانت تأتيه الأخبار تحت جنح الليل من ابن عمه العجوز فعرف ان جميع الأجانب اعتصموا بالقنصليات ليحميهم حراسها . وان تبادل اطلاق النيران مستمر . وكان شغله الشاغل ليل نهار كيف يتخلص من كليم الذي كان وجوده في بيته خطراً على الأسرة كلها . وإن حمد السماء لأن كليم دخل من الباب الخلفي فلم يتنبه لدخوله أحد من الجيران والا كانت طامة. وقد كتم فونج وجوده عنده حتى عن ابن عمه الأمين

وذات يوم وجد نفسه وقد غلبته الدموع . فقد استرد الغلام شيئاً من عافيته فاستطاع البكاء . ومن الدموع تدرج الى النشيج والنحيب الذي لم يستطع التحكم فيه . فلما سمع مستر فونج صوت نحيبه أسرع اليه فوجده جالساً على حرف الفراش يمزق لحم صدره بأظافره ، فهمس مستر فونج قائلا :

— ليس لدينا وقت للبكاء . فقد مكثت أنتظر نهوضك من فراشك لأتحدث اليك

ثم أتاه بمعطف من القطن الأزرق وبنطلون وقال له :

— لقد اشتريت هذين من محل للرهونات . والحالة أصبحت هادئة نوعاً . بل يقال ان الجيوش الأجنبية قد أوشكت أن تبلغ ضواحى العاصمة . فالبس هذه الملابس . ثم هذا الحذاء . وسوف نطلى لك وجهك وشعرك باللون الأسود. واملأ بطنك بعد ذلك من اللحم الطيب وسائر ألوان الطعام التي تطهوها ام أولادى . وقد وضعت لك فى ربطة كبيرة أرغفة طازجة خبزتها وسمكا مملحاً وشيئاً من الجبن ستحملها فى سلة على غرار أبناء الريف حين يرحلون للتجارة

فكف كليم عن النحيب وسأله :

— وماذا تريد منى أن أصنع يا أخى الكبير ؟

— عليك أن تشق طريقك الى البحر حيث تستقل سفينة الى أمريكا . والآن استمع الى جيداً أيها الأخ الصغير . ان جميع بنى جنسك الذين لم يقتلوا محاصرون فى الحى الافرنجى داخل أسوار القنصليات . لقد نشبت هناك معركة حامية . وستحيق بنا الخسارة لمجرد وصول جنود الأجانب بأسلحتهم الى العاصمة. ولن تدرك الامبراطورة العجوز انها خسرت الموقف إلا حين ترى نفسها وقد فرت من القصر لتنجو بحياتها . فعلينا أن ننتظر هذه الساعة ، ولن يطول بنا الانتظار . وعليك أن تتجنب المدن أيها الأخ الصغير ، وسر دائماً بين القرى . وإذا التقيت على قارعة الطريق بأحد فانظر دائماً فى التراب لتخفى لون عينيك الأزرق

ولبس كليم الملابس الصينية التى أعدها له فونج . ثم أكل بشهية من اللحم والخبز والفجل الذى وضعته مسز فونج أمامه دون أن تقول شيئاً . فلما أكل وغسل يديه جاءت باناء أسود اللون وبريشة أوزة ثم راحت تصبغ له شعره بالسواد ثم صبغت حاجبيه ورموش عينيه . فلما فرغت نظرت اليه من بعيد وقالت باسمة :

— من حسن طالعك ان أنفك صغير . وانك لتبدو أجمل فى هيئة الصينيين

فضحك مستر فونج ضحكة خافتة ثم وضع فى ذراع كليم سلة الزاد الريفية وصحبته الأسرة الى الباب الخلفى الصغير . وهناك قال مستر فونج :

— أنت تعرف الطريق جيداً الى البوابة الجنوبية . والرياح الآن تهب من الجنوب فسر معها مقدار ثلاثة أيام ، ثم در نحو الشرق واستمر فى سيرك الى

ان تبلغ البحر . فاذا بلغته فنقب هناك عن سفينة ترفع راية أجنبية واطلب العمل على ظهرها نظير نقلك الى وطن آبائك

فسكت كليم لحظة لا يدرى ماذا يقول ثم غمغم :

— أشكرك كثيراً لأنك أنقذت حياتى

— لاتشكرنا واعلم ان حماقة الامبراطورة العجوز لن تجعلنا أعداء . فعد الى وطن آبائك ولكن لا تنسنا . وخذ هذه الدراهم أيها الأخ الصغير . وعلم الله انى لو لم أكن فقيراً معيلا لأعطيتك كيساً حافلا

وكبر على الغلام أن يغرقه مستر فونج بكل هذا الكرم ، ولم يقبل النقود إلا عند ما ألح عليه مستر فونج بقوله :

— يجب أن تأخذها لتريح قلبى وضميرى

ثم بعد ذلك تقدم منه كل طفل من أطفال الأسرة فأتحفه بهديه من عنده . أما البنت الصغيرة التى لم تبلغ الخامسة من عمرها فلم تدرك لماذا تحتم عليهم أن يخبئوا هذا الصديق فى الحجرة المظلمة ، ولماذا يخرجونه الآن خلسة . فتعلقت بذراع كليم ثم دست فى صدره دميتها الصغيرة المصنوعة من الصلصال وثلاث قطع نحاسية من النقود كانت تدخرها ليوم العيد . ومسحت مسز فونج عينيها بطرف كمها ثم ربتت على ذراع كليم مرة أو مرتين وانخرطت باكية ، ففتح الغلام الباب وتسلل خارجاً تحت جنح الظلام

كان الظلام دامساً فيما حوله والمدينة ساكنة فوقف يصغى ، ولم يسمع شيئاً سوى صوت مزلاج الباب يحكمه المستر فونج من الداخل . وسمع من بعيد بعد ذلك طلقات بنادق متباعدة . ولم يجد ما يصنعه سوى أن يمضى ، فحرك قدمه وأحس بالتراب ليناً ندياً تحت رجليه ورفع وجهه فتحسس مهب الرياح وتركها تقوده فى تلك الظلمة التى لا يخفف من حلكتها الثقيلة على حسه ووجدانه إلا ضوء لا يخبو من الأمل فى قلوب البشر ، حركت جذوته فى قلبه تلك الأسرة المضيافة ، أسرة فونج

نحو البحر

اتخذ كليم خطة الحذر وهو يجتاز الحقول . ولم يعتمد إلا على نفسه . وكان يسير ليلا وينام نهاراً بين أعواد الحلفاء المنتشرة فى ذلك الموسم . فكان يقطع أميالا عديدة فى كل ليلة . لأنه كان يسير بسرعة مستعجلا منظر البحر

وذات يوم التقى بريفية عجوز تجاوزت سن الاحتشام فلم تحرص على إخفاء نفسها حين جلست على قارعة الطريق تقضي حاجتها . وكان قد انتهز إقفار الطريق ساعة الظهر ليقطع مسافة تقربه من غايته . وقد حسبها فى أول الأمر طعما مما يستخدمه قطاع الطرق فى الريف لجس النبض وتعرف الصيد السمين . فلما رأت الخوف على وجهه ضحكت وقالت له :

— لا تخش شيئا يا غلام

— لست خائفاً منك يا جدة . فأى شر تستطيعه مثلك لى ؟

— صدقت . وأين وجهتك ؟

— نحو الشرق . . .

— وكيف تسير هكذا وحدك ؟

وكان قد أخفى وجهه عنها لكى لا ترى زرقة عينيه . فلما خالسها النظر وجدها شبه عمياء لسحابة زرقاء على عينها . فقال لها غير متحفظ من عينيها :

— مات أبى فى بكين . فرحلت لألحق بجدى

— وأين يقيم جدك ؟

— جهة الشرق . . .

— أنا كذلك ذاهبة إلى الشرق . فلنسر معا

— وكيف اتفق أن تسيرى وحدك ؟

— ليس لى ولد . ولكن لى ابنة متزوجة من حداد فى تلك المدينة

الشرقية . وأنا ذاهبة اليهما ألتمس صدقتهما بعد أن مات زوجى فى الأسبوع الماضى وبعت البيت . وكان عندنا ثلثا فدان من الأرض . فلو كان لى ولد لبقيت فى أرضى ، ولـكن حظى سيء . وقد مات من نحسى ولداى التوأمان فى يوم واحد ولهما من العمر أقل من سنة

وتنهدت ثم فتحت ياقتها كمن تريد أن تتنفس فرأى حول عنقها المعروق خيطاً قذراً فيه تميمة صغيرة ، فسألها :

— ما هذا الذى حول عنقك يا جدة ؟

— ومن أين لى أن أعرف ؟

— من أين أتيت بها ؟

— ولماذا تريد أن تعرف ؟

— لأنها تشبه صليب النصارى

— ومن أين لغلام صغير مثلك أن يعرف شيئاً عن النصارى ؟

— هل أنت نصرانية يا جدة ؟

— لعنة الله على النصارى . إنهم قوم سوء وامبراطورتنا العجوز تقتلهم . وكان يجب أن تعرف هذا مادمت قادماً من بكين

— ولـكن أبى كان يؤمن بصليب النصارى

— هل كان أبوك واحداً منهم ؟

— أجل ، ولهذا مات . قتلوه

— هيا بنا نجلس . ولـكن انظر أولا يميناً ويساراً لترى هل يقدم علينا أحد

— الطريق مقفر لأن هذه ساعة القيلولة

— اذن نأكل أولا . فانى جائعة . ومعى هنا أرغفة خبزتها هذا الصباح وأخذا يأكلان من زادها برهة ثم قالت العجوز :

— لقد سألت الله أن يجمعنى على الطريق بمن يساعدنى على مشقته وبركة هذه التعويذة التى فى عنق اجتمعت بك . وقد أعطانيها قسيس طيب علمنى صلاة نسيتها . فقال لى إنه يكفينى أن أقرأ صلاتى البوذية القديمة وأنا ممسكة بالصليب فتذهب صلاتى إلى المكان المناسب من السماء

— إنه رجل حصيف ذلك الذي يستخدم عادات الديانات القديمة المتأصلة لخدمة أغراض الاله الجديد

— نعم كان رجلا سمحاً طيباً ، ولو أنه لم يمت لكنت ذهبت اليه الآن بدلا من الذهاب إلى ابنتي وزوجها

— وكيف مات ذلك القسيس ؟

— قطعه الجنود بالسيف قطعاً أطعموها الكلاب . ولما مرضت الكلاب قالوا انها آية على أنه كان خبيثاً . وكان ذلك في اليوم التالى لوفاة زوجي منذ ستة أيام فلم يبق لى أحد ألوذ به . والآن هيا بنا نستأنف طريقنا يا غلام

وسارا معاً وقد آثر أن يكتم عنها سره بعض الوقت . إلى أن قاربا عند هبوط الليل قرية فانتحى بها تحت نخلة كبيرة منعزلة وقال لها :

— يا جدة . لقد صارحتنى بحقيقتك ، أما أنا فلم أصارحك بحقيقتي

— لعلك لست قاطع طريق . .

— بل إنى أسوأ من هذا عليك . فقد كان أبى أجنبياً مثل قسيسك . ولهذا قتل أبواى وشقيقتاى . وأنا الآن فى طريقى الى البحر لأجد سفينة تنقلنى الى بلدى . وقد سرنى كثيراً وأنا غلام وحيد أن أجدك لتؤنسى سفرى

— إنها بركة التعويذة ، فقد رأت السماء أننا وحيدين فجمعت بيننا

— هل أنت مستعدة لمساعدتى ؟

— لا شك فى ذلك . . .

— عندى فكرة . أخشى أن يرى الناس لون عينىّ . فمتى دخلنا القرية عليك أن تسحبيني من يدى وأغمض أنا عينىّ . ولا غرابة فى أن تقود عجوز حفيدها الأعمى

— وهى نفسها نصف عمياء . صدقت

— وبهذه الطريقة سنبيت لأول مرة تحت سقف بعد أن بت ليالى كثيرة بين البوص فى العراء

— ومعى بعض النقود من ثمن البيت

— وأنا كذلك . فلأنفق نقودى أولا

— بل نقودى أنا أولا يا غلام

— بل نقودى أولا يا جدة . لأننى حين أصل الى وطنى لن تكون لهذه النقود فائدة

— وكيف يمكن ألا تكون للنقود فائدة يا غلام ؟

— لأن نقودنا غير نقودكم

وتم الاتفاق على الخطة . وبذلك باتا ليلتهما فى خان القرية من غير أن يستثيرا الريبة . ومرت الأيام والليالى التالية على ذلك النحو . وهى تزداد فى كل يوم تعلقاً به . وراحت تتبادل معه الأحاديث عن ذكريات حياتها وأفكارها الخاصة . وكانت فلسفتها تتلخص فى عبارة ساذجة قالتها وهى تضحك على عادتها :

— إن وجدت وسيلة لملء جميع البطون والاطمئنان الى امتلائها فى كل حين ، إذن لغدا جميع الناس كسالى يضحكون ويلعبون ببراءة كالأطفال ولحظى العالم بالسلام والسعادة على الدوام . ولكنها أحلام فى أحلام

وكانت هذه الكلمات أحكم كلمات سمعها فى حياته . وقد نقشت هذه العبارة فى شغاف قلبه

ولتعلق العجوز به فكرت أن تتبعه حتى الشاطىء لتطمئن عليه وقالت له :

— ولم لا ؟ إن ابنتي لا تعلم إن كنت حية أو ميتة ولا حاجة لها بى

فلما أبى عليها ذلك أصرت أن تأخذه معها إلى بيت ابنتها وهى واثقة أن زوج ابنتها الحداد سيساعده مساعدة جزيلة

وعند باب الدكان أبصر بأتون النار وأمامه رجل ضخم البنية مفتول العضل يطرق الحديد بقوة . ولم يرهما وهما قادمين عليه . فتقدمت المرأة من الباب وصاحت بغير مقدمات :

— يا ليو السمين ! هل ابنتى فى البيت ؟

فوضع الرجل المطرقة وحملق فيها برهة ثم صاح :

— أهو أنت يا أم زوجتى ؟

— هى أنا . . .

ثم مسحت عينيها بطرف كمها وقالت :

— إن زوجي قد مات

— كذلك ؟ ! . ادخلي . ولـكن من هذا الغلام الذي معك ؟

— غلام يتيم تبنيته لما وجدته وحده على الطريق وأنا وحدي . وقد عني بي عناية كبيرة حتى حسبته روحاً سماوياً

ولم يقل الرجل شيئاً وظهر عليه الضيق . فهز كليم رأسه وقال :

— سأخبرك من أنا

ثم انتحى به جانباً وصارحه بحقيقة نفسه وبما حدث له

— لا نستطيع أن نبقيك هنا يوماً واحداً . فلو علم أحد أن في بيتي أجنبياً لقتلوك وقتلونا جميعاً . فيجب أن تستأنف سفرك منذ الفجر بمجرد فتح البوابة الشرقية

— سأفعل ذلك . . .

— انتظر . لن أتركك تخرج بغير حماية وتتعرض للقتل . ولي ابن أخت أكبر منك سناً سيتولى قيادتك الى الشاطىء . وسأعطيك ثياباً أفضل من هذه ثم تنام بضع ساعات . وستصنع لك أم أولادي طعاماً تأخذه معك . هل لديك نقود ؟

فأجابت عنه المرأة العجوز قائلة :

— ليس معه نقود . فقد أصر على إنفاق نقوده في الطريق ولهذا سأعطيه نقودي

— كلا . احتفظي بنقودك يا أماه . سأعطيه أنا مافيه الـكفاية

وتم كل ما قرره الحداد . فاستحم كليم ثم بدل ملابسه وأكل ونام نوماً عميقاً إلى أن أيقظه الحداد قبل الفجر ، فقد ظل ساهراً بجواره لشدة خوفه من أن يكون أحد قد أبلغ السلطات وجود الغلام الأجنبي عنده . ومن الباب الخلفي الصغير تسلل وفي صحبته ابن شقيقة الحداد . وإذا بالعجوز تقبض على كتفيه وتضمه إلى صدرها ثم تئن متوجعة :

— ويلي . ستنساني حين تعبر البحر

— لن أنساك يا جدة

— ليس عندى ما أهديه اليك . ولـكن انتظر

ثم خلعت الصليب النحـاسى الصغير من حول عنقها وربطته فى معصم يده قائلة :

— أعطيك هذا ليكون حفيظاً عليك . وتذكر أن تصلى فى الصباح والمساء وأنت ممسك به . ولـكن صلاتك هى الصلاة البوذية لأن رب هذه التميمة قد تعودها منى

ولما غلبها البكاء وهو فى أحضانها دفعته بعيداً عنها برفق فانطلق والغصة تعترض حلقه . ورافقه الغلام الآخر فلم يجاذبه الحديث إلى أن بلغا شاطىء المحيط فافترقا . وأعطى كليم للغلام كل ما معه من النقود تقريباً . ثم مشى يبحث بين السفن المزدحمة فى الميناء عن سفينة حربية أمريكية تنقله الى وطنه

وكان أول ما سمعه من الأنباء فى الميناء أن الجيوش الأجنبية دخلت العاصمة . وأن الامبراطورة العجوز فرت هاربة . وأن سكان بكين أنزلت بهم خسائر فادحة بعد الهزيمة . فقلق على آل فونج وتساءل ماذا جرى لهم فى تلك المحنة وهل نالهم من وخيم عواقبها شىء . ولـكن لم يستطع بطبيعة الحال أن يصل إلى قرار



في حديقة الورد

كان وليم لين يتمشى على طول الشاطىء وقد فرضت عليه الوحدة لأنه لم يجد غلماناً في سنه يصحبهم . وكان لا يحب مصاحبة شقيقتيه . وقد ظن في أول يوم وصل فيه الى بيت جده المطل على الشاطىء أنه شاطىء خاص . وكم كانت حسرته حين تبين له أنه لا وجود للشواطىء الخاصة في أمريكا . فكل شيء هنا ملك للجميع

أما المعيشة في البيت فكانت مصدراً جديداً للضيق . فلا خدم هنا من الصينيين يمسحون الأحذية ويتلقون الأوامر بالطاعة والانحناء .ومعيشة جديه معيشة متواضعة لا ترضي غروره وكبرياءه . لذلك كان يلوذ في معظم الأحوال بالتجوال وحده هنا وهناك . وكان الشاطىء والطرقات مقفرة في تلك الساعة الباكرة من بعد الظهر

وقادته قدماه إلى ربوة خضراء جميلة قرر أن يتسلقها ، ولاسيما عندما وجد درجات خشبية مزركشة بالحشائش من الجانبين ، فأدرك أن المكان جزء من حديقة خاصة واسعة . ولكن أغراه بالدخول أنه لم ير أحداً فيما حوله . فجعل يتمشى بين العشب والأزهار نصف ميل إلى أن تراءى له بيت كبير تخفيه الأشجار . فتحسر لأن البيت ليس بيت جده . إذن لكان أفخر الناس بنسبه وبوطنه !

وألقى بنفسه على العشب ثم دفن وجهه بين ذراعيه واستسلم لموجة اليأس التي استولت عليه ، وتمنى من كل قلبه لو أن الصيف انقضى بسرعة ليترك هذه الأسرة الخجلة ويعيش في الكلية الجديدة وحده

ولكن كيف يستطيع دفع نفقات الدراسة وهذا جده لأمه قد أعلنه أنه غير مستعد للمساهمة في المصاريف :

ــ دعي الغلام يعمل يا ابنتي بالليل ليكسب نفقاته بعرق جبينه . فذلك انفع له مستقبلا . ولا تفرطي في تدليله . ثم إن ما معي من النقود لا يفيض

كثيراً عن حاجات شيخوختي . ويكفيني أن أطعم أربعتكم بغير مقابل

ولو لم يكن وليم شديد الكبرياء لبكى من الغيظ وهو مستلق هكذا على العشب . وفي تلك اللحظة سمع صوتاً يكلمه :

— ماذا تفعل هنا يا غلام ؟

فرفع رأسه ورأى شيخاً مهيباً يتكىء على عصا وفوق رأسه قبعة رمادية واسعة من لون سترته . وكان وجهه أسمر ولحيته المدببة بيضاء

— معذرة يا سيدي . فاني لم أستطع مقاومة إغراء المنظر ووجدت نفسي متعباً فرقدت لأستريح برهة قصيرة

— وهل أعجبك ما رأيت ؟

— الى أقصى حد

فهز الشيخ رأسه برهة وراح يتفحصه ثم انفجر ضاحكا وقال :

— يبدو لأول وهلة من وقفتك وكلامك أنك انجليزي

— كلا ياسيدي . لست انجليزياً ولكني تربيت في الصين في مدرسة انجليزية

— في الصين ؟ لقد حدثت اضطرابات هناك أخيراً

— أجل يا سيدي وهذا سبب قدومنا جميعاً ما عدا والدي المحصور هناك

— وماذا يصنع والدك في بكين يا غلام ؟

— أرجو ألا تعجب يا سيدي . فهو مرسل أسقفي

وكان حريصاً على توضيح كلمة أسقفي . لأن الكنيسة الأسقفية هي الكنيسة الارستقراطية . ولعل هذا يخفف من خجله من صناعة أبيه . وغض بصره ليتجنب نظرة الاحتقار . ولكن أدهشه أن يجد من الرجل تقديراً لمهنة أبيه واهتماماً بها ، ثم دعاه لتناول الشاي مع الأسرة في الشرفة ليقص على زوجته مسز كاميرون أخبار بلاد الصين العجيبة فهي مغرمة بالأسفار ، وليعرفه بابنه الذي سيدخل في أول السنة جامعة هارفارد

— يا للمصادفة السعيدة . فأنا أيضاً ذاهب الى هناك

— اذن سيسر ارميا كثيراً بمعرفتك

ودخل بهواً واسعاً له باب من الجهة الأخرى يفضي إلى حديقة الورد .

وكانت حديقة تستغرق مساحتها عشرات الأفدنة ، منسقة تنسيقاً بديعاً فى كل ملليمتر منها جهود عشرات الاخصائيين . وفى قمرة بديعة من البللور مدت مائدة الشاى ، وجلست إليها مسز كاميرون بجمالها الرائق وشعرها الذى وخطه المشيب ، وبجانبها غلام فى مثل سنه مضطجع فوق أريكة وله وجه شاحب وديع وفى حجره كتاب مقلوب . وقام مستر كاميرون بالتعريف فراحت مسز كاميرون تمطره بالأسئلة عن بلاد الصين . وهكذا اندمج فى الحديث معها ، فى حين فتح مستر كاميرون صحيفة يطالع فيها أخبار التجارة . إلى أن دخلت فتاة فى السادسة مرة ذهبية الشعر ترتدى البياض من رأسها الى قدمها وفى يدها مضرب تنس ، ووجهها شبيه بوجه شقيقها ، بيد أنها وردية الوجنتين ممتلئة الشفتين . وقام ارميا بتقديم وليم إليها ثم قال:

— هذه شقيقتى الوحيدة كانداس

— هل تلعب التنس ؟

— أجل . ولكن ليست معى أشيائى

— تعال إذن فعندنا الكثير منها

ثم جذبته من ذراعه بالرغم من احتجاج أمها وأخذته الى حجرة بها مجموعة ضخمة من ملابس التنس وأدواته . وبعد ذلك قادته الى ملعب واسع صنعت أرضه من الأسمنت . وفى الطريق سألته عن سنه وحياته فاتضح أن الفارق بينهما سنة . وانها بعد عام حين تبلغ السابعة عشرة ستقدم رسمياً للمجتمع فى نيويورك وتترك المدرسة نهائياً

وغاظه منها أنها كانت تعامله بألفة وبغير اكتراث ، ثم لم تتورع عن التغلب عليه فى اللعب . وفى ختام الشوط قالت له بغير مبالاة :

— هذا يكفى اليوم ، ولعبك لابأس به . فلابد لى أن أبدل ملابسى قبل أن يحضر الضيوف . طاب يومك

ثم تركته يتحسس طريقه وحده . وبحسرة فارق حدود الحدائق واتجه على مضض الى بيت جده لتتلقاه الخادمة الوحيدة العجوز فتنهره لأن حذاءه يحمل آثار الرمال الندية بعد أن تعبت فى كنس البيت . فازداد حقده على فقر ذويه وعول على أن يصل إلى الثراء والسلطان بجميع الوسائل

المزرعة الضائعة

وصل كليم بعد صعاب ومشاق الى ولاية بنسلفانيا . وراح يسأل الناس عن مستر شارلس ميلر المزارع الى أن دله رجل عجوز على الطريق . ثم أردف قائلا:

— ولكن الرجل مات منذ سنوات . شنق نفسه فى جرنه . لأنه كان رجلا رقيق القلب

— وهل يشنق رقيقو القلوب أنفسهم هنا ؟

— نعم ، فقد ساعد الجمهوريين فى الانتخابات . فلما نجحوا قلدوه منصب العمدة فى القرية . وبحكم منصبه تحتم عليه أن يخرج مزارعاً فقيراً من مزرعته بالقوة لأنه لم يستطع الوفاء بالرهن العقارى . فقام بواجبه ثم أرقه ضميره جملة ليال فلم يطق ذلك العذاب وشنق نفسه . لأنه كان رجلا طيباً لا يطيق أن يؤذى ذبابة . وكان يعيش وحده مكسور القلب بعد أن هجره ابنه الوحيد منذ عشرين سنة الى مكان لا يعرفه أحد . ولم يعد بعد ذلك أبداً

— هذا الولد أبى أنا ...

— حقا ؟...

— نعم أبى . وقد مات هو أيضا ولهذا جئت أبحث عن جدى وها أنا أجد جدى مات منتحراً . فلست أدرى الآن ماذا أصنع ؟ .

— اركب بجوارى وسأوصلك الى المزرعة التى كان يملكها جدك . وستجد فيها قوما آخرين ربما ساعدوك من بعض الوجوه

واجتازت العربة مكانا مقفراً الى أن بلغت شبه واحة منعزلة أشار اليها الرجل ثم أنزله واستأنف طريقه . فوقف كليم يتطلع الى البيت المشيد من الحجارة والى الحديقة التى جلس تحت شجرة منها غلامان وفتاتان فى ملابس بالية يأكلون خبزاً جافا . فلما لمحوه أخفوا الخبز الجاف وراء ظهورهم . وعندما

طرق الباب وطلب مقابلة المزارع نصحوه بالابتعاد لأنه رجل فظ القلب . وهو ليس أباهم لأن الرجل لا أولاد له . وإنما هم من أبناء المعونة

— وما معنى أبناء المعونة ؟

— لا أهل لنا . تعهد بنا الولاية الى المزارعين ليربونا بالصدقة

وفى هذه اللحظة خرج الرجل البدين القصير من باب البيت وصرخ فى الأولاد ليستأنفوا العمل ففروا هاربين كمن خرج لهم عفريت . ثم اتجه نحو كليم وسأله عن بغيته . وبعد حديث قصير رضى الرجل أخيراً أن يسمح له بالعمل عنده باللقمة ، على أن يخاطب فى شأنه مفتشة ادارة المعونة لتقيده فى سجلاتها مادام صبيا لا أهل له وسنه لا تزيد على خمس عشرة سنة



وكانت المزرعة منعزلة عن سائر العالم كأنها جزيرة فى وسط البحر . والأطفال الخمسة كأنهم مجموعة بشرية قائمة برأسها تفزع من المزارع وزوجته لشحهما وقسوتهما . وقد رآهما كليم يضربان الأربعة الآخرين بكل غلظة . أما هو فكان لمهارته وذكائه وجنه لايتعرض لذلك الايذاء . وكان لملازمته الصمت على الدوام لا يجترئان عليه

وعهد الى كليم بحلب البقرة فكان يصحو مع الفجر فيغتسل ويحلبها ثم يخفى وعاء مملوءاً ليعطيه للأطفال الأربعة . أما هو فكان يكره مذاق اللبن . وبالرغم من عدم حصوله على كفايته من الطعام فقد أخذ جسمه ينمو فراح يبتهل الى الله أن يهيىء له سبيل الخلاص من هذا الفخ الاستغلالى الذى وقع فيه . وأن يتمكن من تخليص هؤلاء المساكين الأربعة

ومع مرور الوقت أخذ كليم يبرع فى أعمال الزراعة وفنونها ، وصار يخفى بعض الثمار ليأكلها الأطفال الذين وضعهم تحت رعايته . وكلما فكر فى النجاة وحده لم يطاوعه قلبه لكيلا يترك هؤلاء الأربعة يقاسون العذاب وحدهم

وذات يوم اهتمت امرأة المزارع بتبديل ثيابهم وتنظيف أجسامهم لأن مفتشة المعونة ستأتى فى دورتها نصف السنوية . ورأى الأطفال فرحين لقدومها. فلما سألهم عن السبب همسوا فى أذنه :

— ان سيدتنا تصنع طعاماً كثيراً لذلك اليوم ولا تجسر على منعنا مهما أكلنا فى وجود المفتشة

— ولماذا لا تخبرون المفتشة بسوء معاملتكم فتأخذكم الى مكان آخر ؟

فسكتوا برهة ثم قال واحد منهم :

— الحقيقة اننا تعودنا الاقامة هنا . وأصبحنا لا نفكر فى مكان سواه . ومن نعرفه خير ممن لا نعرفه

فأدرك كليم ان الاستبداد قد نال من قلوبهم حتى ذهب بكل ما فيها من نخوة أو أمل فاستناموا للظلم واستمرأوه

وأقبلت المفتشة قبل الظهر بعد أن قضى الجميع فترة الصباح واقفين فى الشمس عند الباب ، فوجدت الجرن نظيفاً وكذلك البيت والحظيرة . وكل ما لم يسعفهم الوقت بتنظيفه أخفوه عن عينيها . وأحسن المزارعان استقبالها بكل احترام . ثم نظرت فى الأولاد وهزت رأسها بارتياح وقالت :

— عظيم .. عظيم .. كل شىء على مايرام

— اننا نطعمهم بأقصى ما نستطيع ولكنهم لايسمنون أبداً مع ان شهيتهم جيدة وسترين بنفسك كيف يأكلون

— لابأس .. لابأس .. ولكنى أرى هنا خمسة وفى السجل أربعة فقط

— انه مسكين لا أهل له طرق بابنا فلم نجسر على رده خائباً وآويناه على أن نخبرك عند ما تحضرين

فتلاشت البشاشة من وجه المفتشة وقالت لكليم بحدة :

— من أين أتيت ياغلام ؟

— من الغرب

— ولكنك لا تستطيع أن تأتى هكذا بغير اجراءات . فالولاية لا يمكن أن تنفق على أيتام الولايات الأخرى جزافاً

— ظننت جدى على قيد الحياة . وقد كان رب هذه المزرعة

فبادر المزارع يشرح لها قصة جده :

— أنت إذن حفيده . حفيد المشنوق ؟

— نعم

— قل نعم ياسيدتى . وما دليلك ؟

— ليس معى دليل

فقال المزارع بلهفة :

— انه حفيد شارل ميلر ولا شك . فهذه سحنته تماماً . وسأضمنه أنا

— فأشارت بيدها العجفاء العاطلة من الخواتم علامة على الضيق . فهى امرأة لم تتزوج أبداً وقد نيفت على الخمسين فلا عجب أن يضيق صدرها بأولاد الناس

— لحسن حظك ان أحد الأولاد فى المزرعة القريبة مات فى الشهر الماضى وأستطيع أن أحول اعانته اليك

وهكذا انتهت الزيارة دون أن يظفر بطائل أو يجسر أحد على الشكوى لأنها كانت غير مكترثة إلا بتسديد الخانات فى دفترها . وأدرك كليم ان المزارع يتقاضى اعانة من الولاية عن كل طفل يأويه عنده . وهو مسئول عن إطعامه نظير ذلك والعناية به

وهجم الأطفال على المائدة هجوم الجياع على القصاع . فجعلت المفتشة تنظر اليهم ثم تنظر الى المزارع وزوجته وتقول :

— انهم حقاً فى هذه السن لا تمتلىء لهم بطون

— اننا نبذل خير ما فى وسعنا

— أنا واثقة من هذا وقد شهدته بنفسى . والحقيقة يامسز برجر ان كل شىء على ما يرام وسأكتب لك شهادة طيبة وأطلب زيادة الاعانة إن أمكن لمواجهة نفقاتك الاستثنائية فى إطعام هؤلاء

ثم لاحظت ان الجميع شربوا اللبن ما عدا كليم لأنه يكرهه فنهرته

— يجب أن تشرب اللبن ياغلام . فلهذا تربيكم فى المزارع

— ولكنى لا أحب اللبن

— قل لى ياسيدتى دائماً . ولا يهم إن كنت تحبه أو لا تحبه . اسقه إياه يومياً يامسز برجر . والآن أنطلق لاعام جولتى



بعد أن ذهبت مفتشة المعونة لحال سبيلها لكى لا تعود إلا بعد نصف سنة

على الأقل ، أثار كليم أن يعود المزارع وامرأته فى اليوم نفسه الى سالف عادتهما من التجويع والقسوة . بيد أنه لم يجرؤ على الشكوى لأنه أصبح بحكم القانون تحت ولاية هذين المخلوقين . ولو قدر لهما أن يكتشفا قوته وشجاعته لضيقا عليه الخناق وضيقا ما كان يفكر فيه من خطة للفرار

وكانت تربيته فى بلاد الصين قد عودته كظم الغيظ فلا يترك العنان لثورته مهما اشتد غضبه . فحبس ثورته خلف أسنانه ، وصار يسرق الطعام ببراعة فائقة بحيث يظن الرجل أن امرأته هى التى أخذت الطعام الناقص وأكلته . وكان يخشاها . وتظن المرأة فى الوقت نفسه أن زوجها هو الذى أكله . فاذا سألته وأنكر ، فمن دأبها ألا تصدقه . بل كانت تنعته أمامهم بالكذب والخيبة . أما وجوه الغلمان فكانت لا تنم عن شىء

والذى كان يشجع ضمير كليم على هذه السرقات شعوره أن فتى صغيراً مثل تيم استطاع تسكين جوعه بتلك المسروقات . وأن فتاة صغيرة مثل جان أكلت قطعة من الزبد . لأنه كان يوزع الأسلاب بالعدل ولا يستبق لنفسه شيئاً

وعند ابتداء الخريف خاطب برجر قائلا :

— أريد ياسيدى أن أذهب إلى المدرسة الالزامية حسب القانون . وكذلك سائر الأطفال

— ولكنك غير مطالب بالذهاب . فالقانون لا يعرف مجرد وجودك هنا حتى الآن

— أنا مستعد أن أخبرهم

— جرب أن تخبرهم لترى ما أفعل بك

وبذلك فشلت أول خطة . فعول على الهرب فى يوم السبت حينما يذهب الرجل وزوجته الى سوق المدينة لشراء ما يلزمهما . وعول كذلك على اصطحاب الأطفال معه ، وإلا أنهكهم الجوع والتعب وماتوا واحداً بعد الآخر

ولم يكن يدرى على التحقيق إلى أين يذهب ولا ماذا سيفعل بهم . وعلى فرض أنه وجد عملا فهل يكفى عمله لاطعامهم ؟

وأخيراً حل يوم السبت رائقاً لطيف النسمات . فشعر كليم بأنه يحب هذه

الأرض التي يوشك أن يفارقها . ومع ذلك قاوم نفسه وذهب في ساعة مبكرة كعادته فاستحم في البركة الصغيرة الباردة . ثم جفف نفسه بالوثب في الشمس وتحريك ذراعيه . فقد كان صحيح البنية على الرغم من قلة الغذاء . وعندما ارتدى ملابسه وذهب الى الجرن وجد برجر هناك ، فأخذ أدواته بغير كلام ثم انصرف الى حلب البقرة

وبعد ذلك أسرج برجر الفرس وشدها الى العربة ثم وضع فيها زكائب القمح التي أراد بيعها وبضع سلال من التفاح . وقبل أن ينصرف مع زوجته صاح بكليم :

— لا تنس إخراج السباخ من الزريبة وتكويمه في الشمس . ولا تنس طعام الدجاج . وتستطيع أن تكلف تيم باى عمل فقد أمرته أن يطيعك . وتركت لكم جميعاً الطعام في المطبخ ، وليس هناك غيره ، فلا تفتحوا الجرار أو أى شيء

وفرغ كليم من حلب البقرات ، ثم حمل اللبن الى المخزن البارد حيث يحفظ لعمل الزبد . وذهب بعد ذلك الى المطبخ ليبحث عن الغذاء . وهناك وجد الأطفال الأربعة قد سبقوه فجلس وأكل معهم . وبعد أن انتهى الأكل خاطبهم قائلا :

— اصغوا الىّ جميعاً

فرفعوا اليه وجوههم النحيلة . فاستطرد قائلا :

— مارأيكم في الذهاب معى بعيداً عن هنا ؟

فسكتوا كلهم كأنهم لم يفهموا شيئاً . ثم سأله تيم :

— نذهب إلى أين ؟

— لست أدرى . نهرب ثم نبحث عن مكان أفضل

فسألته الفتاة مامى هذه المرة :

— وأين ننام ؟

— سيأخذ كل واحد منا غطاءه وننام وسط الحشائش إلى أن نجد بيتاً أو حجرة أو أى بناء يأوينا حسب الظروف

— وماذا نأكل ؟

— سأشتغل وأحصل على نقود وأشترى لكم بها طعاماً . وتيم أيضاً فى مقدوره أن يشتغل . وأنت أيضاً يمكن أن تلتحق بخدمة بيت

وكان يتوقع أن يجد لديهم استجابة فرح أو اهتمام . ولكن كل ما لاقوه به هو نظرات فارغة بلهاء . وهذه جان لم تقل شيئاً وكأنها نصف نائمة

— ماذا بك يا جان ؟ هل أنت مريضة ؟

فرفعت عينيها الواسعتين بلونهما الأزرق الباهت الى وجهه ، لا الى عينيه بالضبط بل ربما الى ذقنه أو فمه وهزت رأسها وهمست :

-- متعبة الى أقصى حد

— متعبة بحيث لاتأتين معنا الى الهواء والشمس والحرية ؟

— لا أستطيع

— فى إمكانك أن تسترخى بعد أن نمضى بضعة أميال فى طريقنا

— كلا لا أستطيع

وعندئذ قالت ماجى :

— إن لم تذهب جان فلن أذهب أنا أيضاً

وأعلن تيم مثل هذا الرأى . فذهل كليم وصاح :

— انكم تكرهون هذا المكان وتعاملون فيه أسوأ معاملة ولا يقدمون لكم مع ذلك ما تملأون به بطونكم من طعامهم الدىء . إذن سأترككم هنا . فقد عولت شخصيا على الرحيل وسأرحل . ولكم أن تخبروهما حينما يعودان الليلة من السوق . قولوا لهما انى ذهبت ولن أعود فلا لزوم للبحث عنى

ففاضت عينا جان بالدمع . وسأله تيم :

— الى أين أنت ذاهب ؟

— الى المكان الذى أتيت منه

ولم يكن هذا صحيحاً وانما خرج هذا الكلام من عقله الباطن لأنه كان يحن دائماً للعودة الى بيت مستر فونج فى شوارع بكين المأنوسة ، تلك الشوارع التى لم يدرك قبل الآن الى أى حد أحبها . أجل انه لايستطيع العودة الى هناك الآن . ولكن النجاة بنفسه من هذا المكان شىء ممكن وسيقدم عليه . وأما هؤلاء المناكيد فقد أراد أن يمنحهم الفرصة فرفضوها . لقد أراد أن يحمل

مسئوليتهم على ظهره فأبوا . فالآن هو فى حل من التفكير فى أمر نفسه فحسب

وصعد السلالم المتعرجة لحمل حقيبته بعد أن دس فيها ثيابه . وكانت معه بقية ضئيلة من النقود التى اكتتب له بها بحارة البارجة التى نقلته الى شاطىء أمريكا . وكان قد خبأ هذه النقود فى مكان أمين لكى لا تسرقها المرأة أو الرجل

ووقف برهة يخامره خاطر أخذ بطانية يتغطى بها . ثم اشمأزت نفسه من فكرة أخذ شىء من هذا البيت . انه لن يأخذ حق ولا رغيف خبز . فالجوع لا يهمه ما دام وحده

وهبط السلم حاملا الحقيبة فوجد الآخرين حيث تركهم فى المطبخ لم يتحرك منهم أحد ، فنظر فى عيونهم بشجاعة وقال لهم :

— وداعاً جميعاً . ولا تنسوا اننى عزمت عليكم أن تأتوا معى

ثم وضع قبعته فوق رأسه وخرج وهم يحملقون فيه ولا يردون تحيته . فاشتد غيظه منهم وأسرع فاجتاز البوابة الى عرض الطريق ليستقبل عالماً لا يعرف عنه شيئاً

وأمده اليأس بقوة وشجاعة غير عاديين كما ان جمال المناظر رفع من روحه المعنوية . فساوره الأمل أن يكون هنا وهناك فى أرض الله الجميلة الواسعة قوم كرام رحماء مثل آل فونج الذين آووه وأنقذوا حياته . ولسوف يجد عملا ثم يرد لهم الجميل على قاعدة القرض الحسن

ومن يدرى فربما تحسنت أحواله واستطاع أن يعود يوماً ليرى هؤلاء الأطفال المساكين الذين تركهم فى المطبخ وكأنهم نصف نيام

وبعد أن جد فى السير ميلا أو نحو ذلك سمع وقع أقدام تعدو خلفه على أرض الطريق فوقف ونظر وراءه فرأى الغلام بامبيناديه وهو يجرى بأقصى سرعته فانتظره الى أن أدركه فوضع يده على شعره الأحمر وسأله ماذا يريد :

— أريد أن آتى معك ...

فحملق كليم فى وجهه برهة . لأنه رأى فيه عبئاً وقد ظن نفسه سيمضى خفيفاً بعد أن رفضوا الانضمام اليه . ثم تحرك ضميره فمد يده وتناول ذراع الغلام الصغير وقال له :

— وهو كذلك . هيا بنا ...

أحلام الحب

وفى منتصف شهر أغسطس طلعت الصحف على الناس ان حصار بيكين قد انتهى . ثم وصلت برقية من الدكتور لين انه عازم على البقاء هناك . فلم تجد مسز لين بداً من العودة مع البنتين الى بكين . وذهب وليم وحده لأداء امتحان دخول الجامعة

ولكن مسز لين استطاعت قبل أن تسافر أن تظفر له بتدبير خارق للعادة جعل طريقه مفروشاً بالورد . فقد اختارت بعد ظهر يوم أحد لزيارة المستر والمسز كاميرون فى قصرهما الصيفى . وكانت قد وطدت معرفتها بهما مدة الصيف عن طريق وليم الذى كان يتردد للعب التنس كل يوم تقريباً . وكان يقول لها:

— ان آل كاميرون هم طراز الناس الذى أشعر انى أنتمى اليه . وأريدهم أن يدركوا ان لى أماً لا أخجل من انتمائى اليها . فلا تأخذى معك الفتاتين ولا والدتك

وكان هذا التقدير الخاص لها يرضى غرورها ويزيدها تعلقاً بابنها . ولم يهمها ان مسز كاميرون تعللت بالمشاغل وبحالتها الصحية لعدم رد الزيارة . بل ان ذلك سرها حتى لا ترى مسز كاميرون بيت والديها

وفى زيارتها الختامية بعد ظهر يوم الأحد أدخلها كبير الخدم الى حجرة الجلوس حيث كان مستر كاميرون يطالع صحيفة التجارة أما مسز كاميرون فكانت كعادتها لا تعمل شيئاً . فاستقبلتها مشيرة بحركة رشيقة من يدها اليسرى التى يتلألأ فيها الخاتم الماسى الكبير الى مقعد . فجلست شاكرة . ولما كانت تعلم ضيق صدر الأغنياء فقد دخلت فى الموضوع بمجرد أن وضع المستر كاميرون الصحيفة جانباً ليحييها

— لا أريد أن أعكر عليك قراءتك وانما أتيت بضع دقائق للتوديع . ولغرض آخر يتصل فى الواقع بوليم

— وما خطب وليم ؟...

— لقد كان دائماً متفوقاً في المدرسة . ونحن نتوقع أن يتخرج من هارفارد كما تخرج والده من قبل بمرتبة الشرف . فلا قلق من هـذه الناحية . وانما القلق يساورني أنا لأنني سأتركه وحيداً وهو في هذه السن . وليس هناك من يقوم مقام والديه . لأن والدي ووالدتي تقدمت بهما السن جداً وعقليتهما لا تستطيع فهم عقليته العصرية . أما والدا زوجي فماتا منذ زمن بعيد وتفرقت الأسرة . فلو انني استطعت أن أشعر ان وليم سيجد فيك وفي مسز كاميرون مرشدين كريمين عن طريق أرميا ...

فتدخلت مسز كاميرون في الحديث قائلة :

— في استطاعته دائماً أن يأتي الى هنا بنفسه . فهناك عدد كاف من الحجرات

فتنهدت مسز لين تنهد الارتياح بصورة تمثيلية ناجحة وقالت :

— أشكرك من أعماق قلبي يا مسز كاميرون لأنني كنت مشغولة من جهة الاجازات الجامعية الطويلة وكيف سيقضيها وحده . وكانت وجهة نظر والده انه يجب أن يقضيها في عمل يربح منه جزءاً من نفقاته . ولـكن ماذا يدري وليم الصغير المسكين عن مثل هذه الأمور يامستر كاميرون ؟

— ان العمل لن يؤذي شاباً مثله

— وهذا مايقوله والده تماماً . وأنا واثقة انكما على صواب . ولهذا أرجو منك يامستر كاميرون ، في عطلة الصيف الأولى على الأقل أن تساعده في العثور على عمل مناسب . أعني عملا لا يؤدي به الى المعاشرات الرديئة . فالفتى يجهل حتى اليوم طبائع الشعب الأمريكي ولا يعرف كيف يختار لنفسه

— وهو كذلك . أستطيع أن أعدك بهذا . فتحت يدي دائماً أعمال تنتظر الشبان الجادين . وانا شخصيا تكفلت بنفسي تماما منذ سن الخامسة عشرة

وعندئذ خطت مسز لين الى النقطة الدقيقة في الموضوع كله

— والآن سأطلب شيئا فيه شيء من الجرأة حقيقة ياعزيزي مستر كاميرون. ألا تظن ان وليم يمكن أن يكون نافعا من بعض الوجوه لنجلك ؟ ألا تظن مثلا انه يستطيع أن يعنى به أو يساعده على استذكار دروسه حين تتوعك صحته مثلا . يلازمه ويمرضه ويحضر دروسه ليقيد له المذكرات وما الى ذلك ؟

ولما وجدت نظرة روجر كاميرون جامدة نفاذة تحولت متوسلة الى مسز

كاميرون فسرها أن تجد عندها استجابة . وفعلا قالت :
— ربما كانت هذه فكرة طيبة ياروجر . فصحة ابننا كما تعلم ضعيفة بسبب هذه العلة المزمنة التي تحتجزه في الفراش أياما كثيرة من السنة
— ان وليم شخص جم الكبرياء
— ولكنه لا يتكبر عن مساعدة صديق
— لست أعني هذا . وانما أعني ان في قلبه قسوة وطموحا شخصيا . ولكن لا بأس فماذا تتوقعين مني أن أدفع له ؟
فأدركت مسز لين ان المعركة انتهت . وانها كسبتها . فهزت رأسها بترفع وجمعت يديها في حجرها وقالت بكل حياء :
— أرجو منك يامستر كاميرون ألا تسألني هذا السؤال . فلي كل الثقة في حسن تقديرك . وفي عظيم سخائك أيضاً . وأعني ألا يكون بيننا مطلقاً أي حديث عن النقود لأنه حديث محرج ومؤلم . ولو ان زوجي بقي بعد تخرجه من الجامعة في وطنه ولم يؤثر خدمة الرب بعيداً عن الوطن لنال الجاه والثراء . ولكن لا بأس
ثم وقفت وتناولت يدي مسز كاميرون بين يديها وابتسمت متجلدة وقالت :
— لا أستطيع أن أعبر لك عن امتناني وشعوري بالاطمئنان على وليم في عناية رشيدة كعنايتكم أيها الصديقان الكريمان
ولما انصرفت تبادل الزوجان النظرات ثم هزت مسز كاميرون كتفيها وقالت :
— من حسن المصادفة ان وليم شاب وجيه . فلا يضيرنا أن يكون مقيما معنا . وفي اعتقادي انه سيكون نافعاً لأرميا . وإن كنت أحياناً أشعر عند ما أرى يديه الصغيرتين جداً ان فيه أنانية وقسوة
— ربما كان من الخير لأرميا أن يلازمه شاب فيه خشونة كي يستثير حيويته الضعيفة بعض الشيء
— كل ما أخشاه ياعزيزي روجر ان وجوده في الاجازات الطويلة وابنتنا في مثل سنه ممتلئة مثله صحة وقوة وشباباً سيجرهما الى اللعب دائماً معاً والى النزهات . وأنا لا أحب أن تتزوج ابنتي ابن مرسل
— ستتزوج كاندي أي انسان يقع عليه اختيارها . وأنا لا أعلق أهمية كبيرة على تصرفات الأبناء . فرأيي انه إن عاجلا أو آجلا يستقل الصغار عن

الـكبار وينفضون يدهم منهم غير مبالين

وفي أول مرة التقى بها مستر كاميرون بوليم قال له :

ــ ستكون شريك أرميا في مسكنه . في الدرجة الأولى من القسم الداخلي. وسأترك لك اختيار الوسائل المناسبة لمساعدته . وأهم ما ينبغي أن تحرص عليه هو اشاعة المرح في نفسه باستمرار . فنحن لا نؤمن بجدوى العقاقير في علاج الأمراض المزمنة ولا سيما العصبية والدموية . فالحـالة النفسية أكبر عامل في التقدم نحو الشفاء

ــ حقاً يا سيدي . سأبذل وسعي عن طيب خاطر لأن أرميا أحب شاب التقيت به حتى الآن الى قلبي

ــ هذا جميل . والآن هل تكفيك علاوة على نفقات المسكن بالقسم الداخلي مائة دولار شهرياً ؟

ــ أي مبلغ تحدده ياسيدي مناسب

والواقع انه دهش لجسامة المبلغ الذي لم يكن يحلم بربعه ولـكنه عرف كيف يخفي سروره إخفاء تاما

ــ حسنا . وإن لم تجدها كافية فلا تتردد في إخباري . ثم ما رأيك في أن نبقي هـذا الاتفاق سراً بيننا ، حتى لا يشعر أرميا انك مستخدم عنده ؟ وأنا أريده أن يتمتع بشعور الصداقة لا بوحشة السيادة

ــ أتعني ان يبقى ذلك بيني وبينك فقط ياسيدي ؟

وفرح جداً لأنه كان قلقا من وجهة كاندي عند ماتعلم انه أجير أبيها وليس نداً حقيقيا لها

ــ أنا وأنت فقط . ومسز كاميرون تعلم بطبيعة الحـال المسألة اجمالا . ولـكنها لن تخبر أحداً لأنني طلبت اليهـا ذلك . وأما التفاصيل ومقدار المبلغ فشيء لا يهمها أن تعرفه

ــ هذا يوافقني جداً ياسيدي . أعني يوافقني أنا شخصيا أن أنسى كل شيء عنه حتى لا يطوف المال بذهني في علاقتي مع أرميا

ــ مرحى مرحى . هذا ما أردته فعلا

ــ كل ما هناك اني سألتمس منه كصديق أن يسمح لي في السكن بجواره في القسم الداخلي كي أأتنس بقربه

ـ هذا هو الرأى الصواب ، وفى كل شهر سيصلك المبلغ

وهكذا وجد وليم لين نفسه يدخل هارفارد فى مستوى واحد مع أبناء أصحاب الملايين ، ووجد طريق دراسته مفروشا بالورد ، وعاش فى الجو الذى طالما تاقت نفسه اليه.. حتى انطبع فى ذهنه فعلا ان هذه هى حياته الحقيقية



مرت السنوات تباعاً وهو دائماً فى المقدمة حتى إذا أصبح فى السنة الثالثة كتب إلى والده أنه سوف لايعود إلى الصين لأنه مشغول باعداد العدة لاصدار صحيفة لرجل الشارع تساعد على خلق وعى فى الرأى العام بمجرد حصوله على الدبلوم

والواقع أن اصدار جريدة ثم سلسلة من الصحف كانت حلمه الذى يسعى لتحقيقه وركز فيه جهوده . لأنه بتلك الوسيلة يستطيع أن يهدم أى رجل لا يروق له

وأفادته تلك السنوات شيئاً آخر . فقد أصبح بحكم العادة عضواً فى أسرة كاميرون يزور أصدقاءهم ويختلط بهم . ولا يزور جديه وشقيقتيه إلا نادراً

وبمناسبة هاتين الشقيقتين يجب أن نقول إن روث تعبده عبادة . أما هنريتا فكانت تتجنبه ولا تألفه

وكان من اللياقة وهو فى بيت آل كاميرون بحيث لايهتم بكاندى كثيراً بل جعل كل همه فى الاهتمام بمسز كاميرون وتحقيق رغائبها بكل عناية . فجعلت تقدمه لصديقاتها الارستقراطيات ولا تذكر لأحد أنه ابن قسيس . فكان يسره هذا المسلك

أما علاقته بأرميا فكانت علاقة أخ أكبر قوى البنية بأخ أصغر مريض يقوم بالنيابة عنه بالأعمال الشاقة . وبذلك استطاع التغلب على نفور الفتى الشاعرى المزاج من جموده وواقعيته . وكثيراً ما كان أرميا يحاول تبشيره بمبادئه الاشتراكية . فمن الغريب أن ابن المليونير كان يرى الثراء نقيصة وسوء استغلال لمتاعب البشر واعتصاراً لدماء المحتاجين والضعفاء . أما وليم فكان رأسمالياً متعصباً يؤمن بأن الحياة حق للأقوياء فحسب

وفى عطلة ذلك الصيف اختلى ذات يوم بالمستر كاميرون عشية عيد القيامة وقال له منتهزاً تفتح الرجل للكلام بعد كأس من الشراب :

— أحب أن أطلب نصحك يا سيدى فى موضوع مستقبلى .!
— وماذا تريد أن تبحثه فى صدده ؟
— أريد يا سيدى أن أصبح غنياً
فحملق فيه الرجل كأنه يراه لأول مرة وعقد حاجبيه الكثيفين
— تقول إنك تريد أن تغدو غنياً ؟
— نعم يا سيدى غنياً جداً جداً
— ولماذا تريد أن تكون غنياً جداً جداً ؟
— لأنى لاحظت أن الرجل فى أمريكا لا يستطيع أن يحصل على شىء مما يشتهيه إلا إذا كان واسع الثراء
فابتسم الرجل وقال :
— أنت على حق تماماً . . .
ثم فتش فى جيبه عن سيجار قصير سميك فأشعله ونفث الدخان الأزرق ذا الرائحة الزكية وشرد قليلا . ثم استطرد فجأة :
— سأخبرك ماذا تفعل لتغدو غنياً جداً . عليك يا وليم أن تترك التفكير فى كل الموضوعات الأخرى وتركز ذهنك كله فى هذا الهدف
— وهل هذا ما صنعته يا سيدى وأنت فى مثل سنى ؟
— أجل . فهذا هو سر الموضوع كله . وعليك أن تفكر فى شىء يحتاج اليه الناس جميعاً . لا الأغنياء فقط بل خصوصاً غير الميسورين . فكر فى شىء يلزمهم جميعاً رخيص الثمن ، وهذا هو ما حدا بى للتفكير فى مخازن كاميرون التى تبيع كل شىء يحتاج اليه الفقراء بأرخص ثمن
— أنا شخصياً فكرت على هذا الأساس فى إنشاء صحيفة
— صحيفة ؟ لماذا ؟
— صحيفه رخيصة فيها صور كثيرة جداً ينظر فيها الناس فتملأ عيونهم . وبعد ذلك يقرأون إن شاءوا أن يقرأوا
— لم يخطر لى شىء كهذا من قبل . وفى اعتقادى أن هناك عدداً أكثر مما يجب من الصحف
— ليس من هذا الطراز يا سيدى
— أى طراز تعنى ؟

— أعنى شيئاً غيرمعروف فى أمريكا حتى اليوم . وإنما هو طراز اقتبسته من نوع معين من الصحافة الانجليزية ، هى صحف ألفريد هارمزورث

— لم أسمع بها . فحينما أكون فى لندن لا أقرأ إلا التيمس

— إن صحيفتي ستكون حافلة بالصور. فالذى لاحظته أن الناس لايحبون القراءة كثيراً . ولكنهم لا يحجمون مطلقاً عن النظر الى الصور

— لا أظنك تعنى الصحف الصفراء ؟

— كلا يا سيدى . وفى ذهنى ، إذا وافقتنى ، أن أفاتح أرميا فى الموضوع لنشترك فى تحقيقه معاً

وسر مستر كاميرون لهذه الفكرة فهو يبحث عن عمل مرفه ناعم يناسب صحة أرميا . ويشغل باله ويسليه فى الوقت نفسه

— المسألة متروكة لمزاج أرميا . ثم ان الصحف تحتاج لرأس مال كبير

— ولهذا يا سيدى أريد أن أكون غنياً

— وهل فكرت فى تقدير مبدئى للميزانية ؟

— فكرت يا سيدى ودرست الموضوع . رأس المال الكافى لا يمكن أن يقل عن مائة ألف دولار . إن لم يكن أكثر

— لا بأس . دع المسألة الآن إلى العام القادم . وبعد تخرجكما ربما أمكننى . . .

وفى هذه اللحظة فتحت كاندى الباب ودخلت على طريقتها المرحة :

— ما الذى أبقاكما هنا وحدكما ؟

— كنا نتكلم فى الأعمال . . .

— هراء . وليم ليس له أى عمل . . .

— بل لديه فكرة هائلة عن عمل عظيم

ثم نهض الشيخ فانصرف . فجلست كاندى فى مكان أبيها وقالت باستطلاع :

— ماهى فكرتك العظيمة يا وليم ؟

— سألنى والدك ماذا أريد أن أصنع بعد انتهائى من الجامعة فقلت إننى أفكر فى إنشاء صحيفة

— ولماذا صحيفة بالذات ؟

— ولماذا ينشىء أى إنسان عملا إلا لأنه يريده ؟

— دع اللف والدوران يا وليم . أخبرني لماذا تشعر بالنقص مع جميع الناس ؟

فاندفعت الدماء حارة إلى وجهه وقد آلمته الطعنة . بيد أنه ضبط أعصابه وسألها بصوته المألوف :

— هل أشعر حقاً بالنقص ؟

— هذا واضح جداً من طريقة إجابتك على جميع الأسئلة . إنها طريقة تدل على تفكير عميق قبل الاجابة . ومعنى ذلك اعتقادك تفوق محدثك عليك

— لعل السبب أنني نشأت في الصين حيث يفكر الناس قبل الكلام

— أتعني أن الناس في الصين غير صرحاء ؟

— بل أعني أنهم يحبون الدقة والاحكام

— هل الصينيون حقاً يختلفون عنا ، أم أنت فقط تزعم وتتصنع الاختلاف عنا ؟

— أرجو ألا أكون مختلفاً عنك يا كاندى

— إني في الواقع عاجزة عن فهمك يا وليم

— وأنا كذلك في بعض الأحيان . وخصوصاً اليوم . ولكنك اليوم تبدين رائعة . وكل ما أطلبه ألا تتسرعى في الحكم على ، وأن تتركى الزمن يفعل فعله في توضيح كل منا للآخر

— ولماذا تتحدث دائماً عن الزمن ؟

— لأنني أخشى منه .. أخشى أن يأتى فارس على جواد أبيض ويمضى بك

فصمتت قليلا ثم قالت بلهجة خبيثة :

— ولكني واثقة أنك لا تتردد مطلقاً في أن تمد يدك لتأخذ ما تريد ، متى وثقت من أنك حقاً تريده

— ولكني في هذه المرة لست واثقاً . فما أريده أنا قد لا تريدينه أنت . وأنا بتربيتي الصينية أكره أن أرفض ولو بطريق غير مباشر

— هذا هو الشعور بالنقص مرة أخرى

— بل سميه تعقلا

— تعقل سخيف إذن

— إن ما تتكلم فيه ليس مباراة رياضية

— أنا فى الواقع لا أدرى ما هو موضوع الحديث بالضبط
— موضوعه أنا وأنت بعد سنتين أو ثلاث
— ثق أنى لن أفكر فى الزواج من أى إنسان قبل زمن طويل
— وهذا كل ما أردت أن أعرفه يا كاندى

وكان طول الحديث واقفاً متكئاً فوق رخام المدفأة ويداه فى جيبه . أما الآن فتقدم نحوها ورفع يدها إلى شفتيه

وكان فى وسعها أن تجذب يدها لـكنه لم يترك لها الفرصة . وبعد لحظة واحدة كان قد ترك يدها وغادر الحجرة

لقد كانت شفتاه باردتين جافتين . بيد أن كفه كان مندى بالعرق . فأخرجت منديلها ومسحت يدها ثم أعادت المنديل الى صدرها وظلت جالسة برهة طويلة وهى غارقة فى التفكير



شارفت السنة الختامية على الانتهاء وليس فى قلب وليم إلا خاطر واحد يقض مضجعه ، ألا وهو أن يفكر والداه فى الحضور الى أمريكا لشهود حفل تخرج وحيدهما مع مرتبة الشرف . وكم كان سروره حين كتب اليه والده فى شهر ابريل متحسراً لعدم تمكنه هو ووالدته من التمتع بهذا السرور العظيم

وبكل إحكام وأناة كتب وليم رداً يفيض حزنا وباللهجة المناسبة لذلك الظرف . وانصرف بكليته لاعداد خطته مطمئن البال بعد أن احتاط كى لا تحضر شقيقتاه ذلك الحفل المشهود . فكل تفكيره منحصر فى قطع آخر خيط يربطه ببيئته الأصلية كخطوة مبدئية لتحقيق حلمه الكبير

وفى الوقت نفسه كان أرميا يتناقش مع شقيقته فى موضوع تلك الصحيفة التي يريد وليم أن يصدرها . وكان من رأى كاندى ان الفكرة رائعة . فقال أخوها :

— إنه يستطيع أن ينجح ولـكننى لا أستريح لمشاركته العمل . فى قلبه غلظة وفى عاطفته جمود . ومتى حصل من انسان على ما يريده منه نبذه نبذ النواة
— وهل كان هذا أسلوبه معك ؟
— ليس معى . لأنى كنت حريصا دائما على ألا ينال منى كل ما يريد
— وماذا يريد منك ؟

— إنه يطمع عن طريقي في الوصول الى السلطان والقوة قبل كل شيء . فهو شخص لا يستريح إلا إذا كان السيد المطلق في كل ما يتصل به

— ذلك لأنه يشعر بالنقص . فاحساسه الغالب عليه في أعماق نفسه هو الخوف . وهو لا يستكثر أي نوع من أنواع الأمان التي يريد أن يحصن بها نفسه ضد ذلك الخوف الفظيع . ولهذا فهو في نهم دائم الى السيطرة والسلطان والثراء . وانه لمسكين يا أرميا . فليته يعلم انه لا حاجة به الى الخوف من شيء مطلقا لأنه فعلا وكما هو الآن شاب رائع في جميع مواهبه وصفاته . ولكنه لا يدري مقدار روعته

— مرحى مرحى . لا شك انه يسر كثيراً لو قلت له ذلك بنفسك . ولكني أحذرك يا كاندى مخلصا ! متى سلمته نفسك فيجب أن تخضعي خضوعا تاما بلا قيد ولا شرط . ان نهمه للسلطان وحبه للطغيان مما يقشعر له جسدي!

— ولكن لماذا تقشعر منه هكذا ؟

— لأنه انسان ليس فيه محبة لأي انسان !



وذات ليلة كان الشابان مدعوين لحفلة راقصة كبرى . فجعل وليم وهو يرتدي بدلة السهرة بأناقة بعد أن صقل أظافر يديه ، يفكر في كاندى . وجعل ينظر الى صورته في المرآة راضيا مغتبطا بوسامته وأناقته . ثم نظر في ساعته وتساءل هل قام محل الأزهار بتسليم الباقة الفاخرة التي انتقاها بنفسه لكانداس . فقد وطد العزم على أن يتزوجها . وجعل يسأل نفسه لماذا لا يطلب يدها الليلة

ولاحظ أرميا سكوته وشروده ، وطول الطريق لم ينبس ببنت شفة . فأدرك انه يبيت في نفسه أمراً . ورآه عندما وصلا الى الحفلة يتجه ببشاشة واهتمام نحو كانداس . فيقول لها وهو يتناول يدها مصافحا :

— انك تبدين الليلة رائعة وكأنك أميرة

— لا تحاول يا وليم أن تزعم لي انك صرت شاعراً

— كلا . ولكن كل ماهناك انني متعصب للأميرات . فقد ربيت بالقرب من القصر الامبراطوري في بكين كما تعلمين حيث تمرح الأميرات ويلعبن . فهن غير غريبات عني

وسمعت مسز كاميرون طرفاً من هذا الحديث فلم يعجبها اتجاهه وهتفت به فى شىء من الحدة :

— هل ستحضر شقيقتاك حفلة التخرج ؟

— لقد أصرتا على الحضور . وسوف تصلان غداً

فصاح أرميا :

— ما أشد تكتمك يا وليم . لماذا لم تخبرنى انهما ستحضران ؟

— ظننتك لا يعنيك الأمر

— بل يعنينى كثيراً فأنت تعرف أختى فلماذا لا تريدنى أن أعرف أختيك ؟

— إحداهما وهى هنرييتا قبيحة الشكل . والأخرى وهى روث جميلة ولكننى لم أكتشف فيها شيئاً يثير الاهتمام

وفى هذه اللحظة عزفت الموسيقى للرقص فأخذ وليم كانداس بين ذراعيه ونزل بها الحلبة بين الراقصين . وكان يرقص ببراعة ورشاقة . وراقه أن يشعر انه محط الأنظار

وعند مانظر الى وجه كانداس الهادىء الجميل تبين عن قرب جمال ملامحها. وفكر فى سعادة طالعه لو انها تزوجته فى وقت قريب . وما لزوم تطويل مدة الخطبة ؟ انه يحتاج اليها الآن . يحتاج اليها شخصياً والى كل مايمكن أن تيسره له

وعقد العزم على أن يطلب اليها يدها الليلة . ولهذا حرص على مراقصتها معظم الوقت . وحين كانت تراقص سواه كان يكف عن الرقص ولا يطلب من غيرها أن تراقصه

وفى أثناء الرقصة الأخيرة قال لها :

— فى نفسى أن أقول لك كم أنت جميلة . فتعالى بنا نخرج الى الحديقة . لأن جوانحى تفيض بشىء أريد أن أقوله لك

ثم وضع يدها فى ذراعه وخرج بها وقد بدا الجد على وجهه . وكان أرميا فى الطرف الآخر من الحجرة يرقبهما باهتمام . فلحق بوالديه وقال لهما بصوت خافت :

— أريد أن أنذركما . فى هذه اللحظة سيطلب وليم من كانداس أن تتزوجه

فتبادل الوالدان النظر ثم قال أبوه :

— لا أظن ان لنا فى هذا الأمر حيلة . فالمسألة تتعلق بها

وتخير وليم جانباً من الحديقة بديع التنسيق تزينه الفوانيس الصينية . ثم شرع يؤدى الدور الذى أعده جيداً من قبل . فبدا هادئاً جداً وكأنه يتحدث فى موضوع علمى أو فنى . وبصوته الرزين الواضح قال لها :

— يا كاندى . أظنك تعلمين منذ زمن طويل انى راغب فى الزواج منك إن كان ذلك يجد لديك قبولا

فسكتت كانداس ولم تجب . فسألها بشىء من الحدة :

— ما جوابك ؟

— لا أعتقد انك طلبت منى ذلك حتى الآن

— ولا أنا أيضاً كنت أعلم انى سأطلبه منك قبل أن أجد لنفسى عملا مستقراً يكفل لى دخلا محترماً . بيد أنى تساءلت فى الأيام الأخيرة لماذا أنتظر. وانه ليسرنى أن أتذكر حين أتمكن من بناء قصر لك يعوج بالعبيد انى طلبت يدك وأنا خالى الوفاض فلم ترفضينى

فضحكت وحركت المروحة الصينية التي كان أهداها اليها فى العام الماضى فانتشر منها العطر فغمر أنفه ، وسألها بشىء من الضيق :

— والآن ما قولك يا كاندى ؟

— فيم ؟

— لا تضايقينى . أنت تعلمين جيداً

— ولـكنك لم تقل لى انك تحبنى !

— طبعاً أحبك

وكانت هذه أول مرة يقول فيها هذه الـكلمة لمخلوق . فثقلت على لسانه كأنها الصخور . وفطنت هى الى ذلك فقالت له :

— ما أغرب لهجتك وأنت تقول هذه الـكلمة !

— لأنها غريبة علىّ إذ لم أقلها لأحد من قبل

فتأثرت لهذا ونظرت اليه باستطلاع وهى تحسبه قد ادخر لها مكنون عواطفه حتى اليوم . ولم يكن فتى شهوانياً . ومع ذلك استهواه فى هذه اللحظة ملمس هذه الفتاة الجميلة . وهدته غريزته ففتح ذراعيه وشعر بهـا ترتمى بينهما ثم أحس على صفحة وجهه بملمس شعرها الناعم فهتف من أعماقه :

— يا أعز الناس ...

وكانت هذه هى الكلمة التي سمع والدموهو طفل ينادى بها والدته فعلقت بذهنه من بين ألفاظ التدليل كافة

— هل ستكون رفيقاً بى ياوليم ؟

— أجل وأقسم لك

فسمعها تتنهد ثم رآها تستسلم الى صدره ثم سقطت المروحة من يدها . وخيل اليه عندئذ انه أحبها لجأة حباً هو أقصى مايستطيع . فقبلها قبلة طويلة عنيفة ، وعند ما أطلقها من بين ذراعيه أطلقت صرخة صغيرة

— لقد كسرت مروحتي بحذائك

وتهشمت المروحةفعلا لأنها كانت مصنوعة من خشب الصندل الزكى الرائحة . ولما رفعها من الأرض بدت فى كفه كالزهرة المهشمة

— لا بأس . سأبعث الى بكين فى طلب مروحة أخرى





وقالت كانداس لوليم : « لقد كسرت مروحتي بحذائك »

معركة الحياة

استلقى وليم فى فراشه يستريح بعد انتهاء حفلة التخرج ومعه شقيقتاه . ثم مد يده ليفض بريده فوجد فيه خطاباً بخط غريب ففضه وأخذ يقرؤه فى دهشة :

« عزيزى وليم

« قد لا تتذكرنى . فقد نهيتنى ذات مرة عن مقاتلة الغلمان الصينيين فى شوارع بكين ثم لم أرك بعدها . وأنا أعمل الآن فى أمريكا موظفاً فى محل بقالة . والعمل جيد والأجر طيب ولكننى كنت أتمنى حظاً كحظك من التعليم. وقد سرنى أن أرى صورتك فى الصحف فى مقدمة المتخرجين من هارفارد . وقد سرنى كثيراً أن أنتهز هذه الفرصة لأعرب لك عن مودتى وعرفانى بأفضال والدك الجليل

المخلص

كليم ميلر »

وسألته أخته روث عن مصدر الخطاب فقال لها :

— أتذكرين أسرة مرسل الايمان فى بكين ؟

— كنت صغيرة جداً فى بكين . لا أذكر أى شىء فيها

فقالت هنريتا : « أنا أتذكرهم جيداً . دعنى أقرأ الخطاب »

— خذيه واحتفظى به فليس فى نيتى أن أرد عليه

وفى تلك الليلة ، وقد عادت هنريتا الى حجرتها فى بيت جدها ، جلست تكتب خطابا الى كليم ميلر . وكانت نفسها مملوءة بالمرارة لازدراء أخيها لها بسبب عطلها من الجمال . ومع هذا كانت تشعر بحب عظيم لروث لا تشوبه الغيرة أو الحسد

وتناولت هنريتا القلم وراحت تكتب الى كليم ميلر مدفوعة بباعث غامض

« عزيزى كليم

« أنت لاتعرفنى . ولكنى شقيقة وليم لين . إلا انه شاب تمنعه كبرياؤه من

الـكتابة اليك . وهو مفطور على تلك الـكبرياء منذ طفولته . ثم ازدادت تلك الفطرة عتواً على الأيام . وهو فى الواقع شاب وجيه وسيم أنيق . ومما يؤسف له انه لن يقنا: ! بالـكتابة اليك . ولما كنت أعتقد ان رسالتك الرقيقة ينبغى أن يكون علي اسب ، فقد كلفت نفسى هذه المهمة

« أنا لا أعرف ت شيئاً كثيراً . ولذلك سأبدأ بالحديث اليك عن نفسى . فأنا فى الثامنة عشرة وسأدخل الجامعة فى الخريف المقبل . ومن الخير أن أخبرك منذ الآن انى لست جميلة على الاطلاق . وهذا من أعجب الأمور لأنى أشبه وليم الى حد كبير . والمعروف عنه انه على جانب من الوسامة عظيم . وأحسب شكله لا يلائم الأنوثة كثيراً . أما شقيقى روث فجميلة جداً

« هل تراودك ذكريات بكين ؟ انى أفكر فيها كثيراً . وأحب أن تروى لى فى رسالتك القادمة ذكرياتك عنها . وهل تعتزم العودة اليها يوماً ما . أنا شخصياً أتمنى أن أذهب ولـكنى لا أعرف وسيلة أتعيش منها هناك . وفى الوقت نفسه لا أريد أن أكون مرسلة »

ولم تجد بعد ذلك ما تقوله فوقعت الخطاب . ثم خطر لها أن تبادر بارساله على الفور ولا تنتظر حتى الصباح . وكان الوقت قد جاوز منتصف الليل . ومع هذا ارتدت معطفاً فوق ملابسها المنزلية وتسللت الى الشارع حيث ألقت بالخطاب فى صندوق البريد وعادت وهى ترتجف من البرد ومن هذه المغامرة التى أقدمت عليها بغير موجب

وعند ما تسلم كليم الخطاب كان قائماً بالعمل فى مخزن البقالة . فخطر له انه من وليم . ووضعه فى جيبه الى أن حانت ساعة الراحة وقت الظهر وجلس الى المائدة مع بامب الذى عاد من المدرسة . وفض الخطاب . وكم كانت دهشته وسروره عند ما طالعه . فهذه أول مرة يتلقى فيها رسالة من فتاة

ولما أعاد تلاوة الخطاب بامعان راقه ما تضمنه من صراحة وصفاء ورجاحة تفكير . وعول على كتابة الرد بعد حضور قداس يوم الأحد

وهكذا تسلمت هنرييتا بعد أسبوعين الخطاب الذى ذهبت بنفسها كل يوم تسأل عنه عاملة شباك البريد . وما أن وصل الى يدها حتى دسته فى صدرها . ثم اختلت بنفسها فى حجرة بالسطح وفضت الخطاب وقرأته مراراً

« عزيزتي هنرييتا

« تلقيت ببالغ الدهشة خطابك اللطيف . ولكن ربما كان سروري بتلقي خطاب منك أعظم من سروري بخطاب يكتبه وليم . وأنا أكبر منك سناً ولكني لا أستطيع أن أذهب مثلك الى الجامعة لانشغالي بتحصيل المعاش . فأنا يتيم . وأكفل يتيما آخر لا أعرف اسمه الكامل . وكل ما أعرفه عنه انه يدعى بامب . ولست واثقاً انه اسمه الحقيقي . فهو أشبه أن يكون اسم تدليل. والمسكين لا يذكر أي شيء عن أسرته . وقد ربى على نفقة الولاية . وسأبين لك في فرصة أخرى كيف التقيت به وأصبحت مسئولا عنه

« انى لا أحسن الكتابة لأنه لا وقت عندي للتحرير . ولكني أحب أن أخبرك انى أتذكر بكين جيداً . ويسرني جداً أن نتبادل ذكرياتنا عنها . لاسيما وانه ما من أحد في هذه المنطقة يعرف عنها شيئا

« ربما حضرت يوما لمقابلتك بعد أن أفرغ من مهمة تعليم بامب . والواقع ان لدى أفكاراً كثيرة ومشروعات ضخمة عما سأفعله بعد الانتهاء من هذه المهمة ، إذ ينفسح أمامي الوقت للتفكير في نفسي وفي حياتي الخاصة

« وكم يكون سروري أن أتلقى منك رسالة أخرى المخلص

كليم ميلر »

وهكذا بدأ ذلك المد والجزر من الخطابات مابين ضاحية من ضواحي نيويورك ومخزن بقالة في مدينة بولاية أوهيو . واستمرت تلك المراسلات سنتين كاملتين دون أن يرى أحد المتراسلين صاحبه . بيد انهما أفلحا في نسج خيوط آمال وأحلام كثيرة

والواقع انهما كانا بحاجة شديدة الى الأحلام بحيث لم يضيعا الوقت في الحديث عن الوقائع المادية في حياتهما . فالواقع لم تكن له أهمية في نظرهما . وإنما المهم عندهما هو المستقبل . ولهذا مضت سنوات طويلة قبل أن تعرف هنرييتا تفاصيل مالاقاه كليم من صعاب ومتاعب الى أن شق طريقه في النهاية ووجد هذا العمل في محل البقالة ثم أصبح شريكا فيه وتمكن من الانفاق على تعليم بامب



مرت السنوات . وبمرورها شعر كليم أن مخزن البقالة ليس نهاية مرحلته في الحياة . فقد كان يتعلم أسرار البيع والشراء ويدرس أيضاً شؤون شعبه

الذى لم يولد وينشأ فى وسطه

وقد ساعدته المعيشة بين أهل المدينة الصغيرة الدمثين على أن يبرأ من الصدمة التى أصيب بها بمعاملة المزارع وزوجته عندما حل غريباً على الأرض الأمريكية . وانهـا لصدمة كان يتذكرها فى الحين بعد الحين ويقارنها بتلك الصدمة العاتية التى منى بهـا عندما وجد والديه قتيلين ذات يوم صائف فى مدينة بكين

وكان كليم انساناً عصبي البنية متدفق الحيوية لا يستقر فى مكان ولا يركن الى الراحة . وكانت الأيام تمضى مثنى فى كثير من الأحيان لا يذوق فيها طعاماً إلا وأصابه من الطعام غثيان . وإنها لمفارقة عجيبة من مفارقات القدر أن هذا الانسان الذى يحل الطعام محلا عظيما من نفسه وتفكيره ، كان لا يستريح الى الطعام لأنه يثقل على معدته مهما كان هيناً . فاللبن لا يستطيع أن يشربه . والزبد لا يستطيع أن يقربه . لأنهما يثيران فى خياشيمه رائحة البقر . أما البيض فكان يكرهه . وأما اللحم فلا يكاد يمسـه لأنه لم يتعود أكله فى صغره بسبب المعيشة الضيقة التى سامه إياها أبوه . فكان ينسى نفسه أيام كثيرة

ولئن لم يستطع أن يجعل من الطعام ماده بدنه وحسه فقد جعل منه مادة أحلامه وخياله . فانكب على دراسة مشكلات التغذية ومشكلات السكان فى العالم قاطبـة . وأعانته على ذلك معلمة عانس فى مدرسة المدينة كانت تقرضه الكتب وكانت تنفق من وقتها فى أمسيات الآحاد تتحدث إليه وتناقشه . وقد تحتدم المناقشة بينهما لفرط اهتمامهما بالموضوع

والرأى الذى تكون لديه بعد الدراسة وعلى ضوء تجربته الشخصية عكس الرأى الذى خرج به على الناس « مالتس » . إنه لا يرى العالم مكتظاً بأكثر مما ينبغى من السكان . وهو كذلك يرى أن العـالم به من الغذاء أكثر مما يكفى جميع البشر . والمشكلة الكبرى ليست كثرة الناس أو قلة الطعام . فان الله قد جاد على عباده بما يفيض على حاجتهم . وإنما العيب فيهم وفى تفكيرهم وقصور وسائلهم . فهم لا يكترثون اكتراثاً جدياً بحسن تنظيم مصادر الطعام كى تصل كل لقمة ضائعة الى معدة جائعة

أصبحت فكرته الراسخة إذن هى جلب الطعام من حيث يكثر ويفيض عن الاحتياجات المحلية ويهبط ثمنه فينقل إلى حيث يحتاج الناس إليه ويتمكنون

من شرائه . لا لتحصيل الربح بل لتمكينهم من ملء بطونهم بأرخص الأسعار

وما نبتت تلك الفكرة فى رأس كليم حتى غدت لديه عقيدة مسيطرة كعقائد الدين . وتعلق بهذه الفكرة كما تعلق أبوه بالإيمان الذى به يكون الخلاص . وكل ما بينه وبين أبيه من فرق أن حماسة والده الى حد الهوس كانت بغذاء الأرواح وخلاصها ، وأن حماسته هو إلى حدالهوس كانت بغذاء الأبدان وتخليص أصحابها من رق الحاجة ، لأنه بغير طعام تهدر جميع القيم وتتلاشى الكرامة الانسانية

كلا . لم يشغل كليم ميلر نفسه بأرواح الناس وخلاصها لأنه كان يؤمن أن أرواح الناس طيبة خيرة كما خبرها فى كافة طبقات العالم وعلى اختلاف الأديان والعقائد . وإنما تلتوى تلك النفوس تحت ضغط الطغيان والفزع . وليس أدعى إلى الفزع من طغيان الجوع

ان إيمانه بالله يختلف كثيراً عن إيمان أبيه ، فإيمانه واقعى . والله عنده قد خلق الناس على أحسن وجه وفطرهم على الحب والنجدة والخير . وان الشر لم يتسرب إلى نفوس الناس إلا بفعل العوامل الدنيوية . والبذرة الأولى التى نبتت منها جميع الشرور هى الجوع . فالجوع هو الذى يلد المرض ويلد الذل والانحلال والكراهية والخسة . ولدفعه أو اتقائه يتنابذ الناس ويتقاتلون أفراداً وشعوباً . فالجسد هو الذى يفسد الروح

وكما شعر والده ذات يوم وهو فى الحقل أن الرب ناداه ودعاه أن يترك العالم ليخدم قضيته ويبشر باسمه عبر البحار ، يعتقد كليم أيضاً أن الرب ناداه كى يعزى إخوانه البشر ويمسح أحزانهم بتيسير الطعام لملايين الجياع

ولم يكن فى حماسته جاهلا بل كان يدرك تمام الادراك أن الهدف ضخم شاق . فكان يرسم تفاصيله فى خطاباته التى يرسلها كل أسبوع الى هنرييتا . فيزداد تفكيره بالكتابة على مر الأسابيع وضوحاً واتساقاً . فكانت هذه الخطابات بمثابة أرشيف كامل لمشروعه العظيم

ولما شعر بأهمية ذلك بعث إليها يقول :

— احتفظى بخطاباتى بعناية يا هنرييتا . فليس عندى وقت للاحتفاظ بصور منها وسأحتاج للرجوع إليها فى يوم من الأيام

ولم تكن هنرييتا بحاجة إلى هذه التوصية . لأنها كانت تحتفظ بخطاباته فى عناية

تامة وإجلال ، واشترت صندوقاً من الصفيح طلته باللون الأحمر وجعلت عليه قفلا ووضعته فى قاع خزانتها ثم جعلت مفتاحه فى سلسلة حول عنقها . ولما أرسلت تخبر كليم بذلك بعث إليها بتعويذة قذرة صدئة فى خيط قذر

— انها تذكار عزيز من امرأة عزيزة عجوز أحببتها فى بلاد الصين . فضعيها مع خطاباتى فى الصندوق فقد تكون فيها بركة تحل على الأفكار التى تضمنتها أوراق



تم زواج وليم فى شهر سبتمبر التالى لتخرجه من الكلية . ولم يكن فى الواقع راغباً فى التعجيل بالزواج على هذا النحو . بل انه كان قد أشار على كانداس بالانتظار سنة على الأقل أو سنتين الى أن يحصل على المائتى ألف دولار لانشاء صحيفته . فمطت كانداس شفتيها مستاءة من فكرة التأجيل وقالت :

— ان كان المال فقط هو الذى يعطلك ...

— ليس المال فقط . بل يجب أن أعد خطتى إعداداً دقيقاً . فانشاء الصحف ليس مجرد تجارة بل هو تنظيم وتجميع أدوات ورسم أهداف واعداد ادارة منظمة للاعلان

— تستطيع أن تصنع كل هذا بعد أن نتزوج كما تستطيعه تماماً قبل أن نتزوج . ولهذا سأتباحث مع أبى فى الموضوع

وهم وليم حين قالت ذلك أن يمنعها . ولكنه سكت فقد أمضى الصيف كله يعمل ليل نهار بمفرده . ورفض أن يذهب مع آل كاميرون الى قصرهم الصيفى مؤثراً الاقامة وحده فى مسكن رخيص من حجرتين فى قلب نيويورك ، يعد التجارب والنماذج لصحيفته بالعشرات ويقارن بينها وينقحها إلى أن وصل الى الحجم والشكل والتوضيب الذى يريده بالضبط . ولم يكن يسمح لنفسه إلا بزيارة واحدة فى كل شهر كى يرى كانداس . وكان الحديث الذى جرى بينهما فى هذه المرة فى زيارة من تلك الزيارات . ولهذا قال لها :

— أنا لا أريد أن يكون اعتمادى على أبيك

— لا تكن أبله . فأبى مستعد أن يصنع أى شىء من أجلى . دعنى أتحدث إليه

— ولكن أرجو منك ألا تخاطبيه فى موضوع التمويل فانى واثق أنى سأجد المبلغ اللازم

والواقع أنه كان قد كون في مدة الدراسة بالجامعة صداقات عديدة مع صفوة العائلات الثرية التي يتعلم أبناؤها في هارفارد . وكان يعرف كيف يرتدي ملابس السهرة بكل اناقة وبذخ ويسهر الليالي راقصاً ومتحدثاً كما كان يسهر ليالي أخرى يتصبب عرقاً على مكتبه وهو يعد العدة لاصدار صحيفته

وفي زيارته التالية التي كانت الأخيرة قبل زواجه طلب منه روجر كاميرون ذات ليلة أن يجتمع به على انفراد في حجرة المكتب بعد العشاء . وبادره قائلا :

— اجلس . لقد تحدثت الى كانداس في الموضوع

— لقد طلبت منها يا سيدي ألا تفعل

— ربما . ولكن كاندي على كل حال لا تطيع أي إنسان وإنما تفعل ما تريد . والآن يا وليم قد صارحتني برغبتها في التعجيل بالزواج . وانك ترى نفسك غير مستعد لذلك قبل مضي سنة أو سنتين

— إني أرى من واجبي أن أتبين أولا طريقي بصورة واضحة قبل أن آخذ على عاتقي مسئولية تكاليف الزوجة والبيت

— هذا كلام معقول . صواب جداً ومعقول . وأنا لم أفعل خلاف ذلك في شبابي . فقد كان علي أن أنتظر مرغماً لأن والد مسز كاميرون أصر على الانتظار ولم يصغ لتوسلاتي وثورتي ولم يعر بكاءها التفاتاً . فانتظرنا . ولكني حين أراجع هذه الذكريات لا أريد لابنتي أن تقاسي ما قاسته أمها من قبل . قل لي بسرعة ما هو المبلغ الذي تحتاج اليه بصفة أولية يا وليم ؟

— يجب على الأقل أن يكون حاضراً تحت يدي مائتا ألف دولار

قمط مستر كاميرون شفته السفلى وقال :

— إنك بالتأكيد لا تحتاج الى هذا المبلغ كله دفعة واحدة

— كلا . ولكن يجب أن يكون في متناول يدي وتحت أمري

وساد الصمت لحظة . وكان الضوء خافتاً فلم يتبين وليم ما ارتسم على وجه مستر كاميرون وظل في شك الى أن سمعه يقول أخيراً :

— أخبرني مزيداً عن هذه الصحيفة التي تريد إصدارها يا وليم . لماذا مثلا تصر على إصدار تلك الصحيفة ؟ . لماذا لا تأتي فأجعلك شريكا في شركة مخازني التجارية ؟

— أشكرك كثيراً يا مستر كاميرون وأقدر شعورك كل التقدير . ولكني

فى الواقع وضعت كل قلبى وتفكيرى فى إنشاء نوع جديد من أساسه من الصحف . فاذا نجح أسست سلسلة من الصحف اليومية والأسبوعية . وفى ذهنى أن أجعل ثمنها نصف ثمن الصحف الحالى ، مع تمويلها بأخبار تبلغ ضعف أخبار الصحف فى الوقت الحاضر

— معنى هذا أنه يجب أن تكون فيها إعلانات هائلة

— وهذا هو مورد الكسب فيها . ولكن المسألة ليست مسألة كسب فقط

فارتسمت الدهشة على وجه مستر كاميرون وقال :

— إن لم تكن مسألة كسب فمسألة أى شىء هى ؟

— أريد أن أحقق شيئاً أهم من الثراء . وهذه هى وجهة نظرى يا مستر كاميرون . إن العالم معظمه مكون من سواد العامة وهم قوم جهلاء وأغبياء . وما يتعلمونه فى المدرسة لا يساعدهم جداً على التفكير . ولهذا فهم لا يعرفون كيف يفكرون . ويجب أن تملى عليهم أفكارهم إملاء . إنهم لا يعرفون كيف يميزون الخطأ من الصواب . ولهذا يلزم لهم شخص يخبرهم بما هو صواب ويحذرهم مما هو خطأ

— إن الناس فعلا لا يحبون التفكير

— أعلم هذا . ولهذا تجدهم يعملون بغير تفكير . أو يصغون لكل من تحدثه نفسه بالتأثير عليهم من الاشتراكيين والمهيجين . فيتأثرون بهم ويسلكون سلوكا أخرق يتهدد كرام الناس بالخطر . وقد عقدت العزم يا مستر كاميرون على أن أقوم أنا بمهمة التفكير للناس وإملاء الأفكار عليهم . ولهذا أريد أن أنشىء صحيفتى

— ومن يدريك أن الناس ستروق لهم أفكارك ؟

والواقع أن مستر كاميرون كان فى دهشة بالغة مما سمع . وكان لا يدرى بالضبط ماذا يقول عن هذا الشاب الذى يجلس أمامه ويتكلم فى ثقة من أمر نفسه وبعينين معدنيتى النظرات

— لست أبله يا مستر كاميرون . ولن أقول لأحد إنها أفكارى . بل سأصنع فى صحفى ما تصنعه أنت فى مخازنك . فلديك رجال مهمتهم أن يفتشوا لك عن أكثر السلع رواجاً فتشتريها بكميات كبيرة على حسب ما تقدره من طلب الناس لها . والواقع أنك تدل الناس فى معارضك على ما ينبغى لهم أن

يشتروه بتبيين مزايا كل سلعة والاعلان عنها . وهذا ماسأصنعه أنا . إذستحفل صحيفتي بما يحبه الناس من الأفكار والموضوعات . وستكون فيها قصص كثيرة مثيرة مصورة عن العجائب والغرائب والطرائف وجرائم القتل والحوادث . وسيكون فيها بجانب ذلك طرف مما يحدث في العالم أجمع مما ينبغي على الناس أن يلموا به

فقطب مستر كاميرون حاجبيه وسأل بدهشة :

— وأين موضع أفكارك الخاصة في كل هذا ؟

— في طريقة العرض والنقد . فلن تكون أفكاري سوى إيحاءات . وفي طريقة الامتناع عن نشر موضوعات بعينها والتغطية عليها بموضوعات أخرى

فرشقه مستر كاميرون بنظرة ثاقبة ثم قال :

— ما أبرعك وأدهاك ! وأحسبك دائماً على صواب

— لا يمكن أن أكون دائماً على صواب يا سيدي . ولكن سأجتهد في ذلك

وكان وليم بهذا الحديث قد أفصح عن مكنون نفسه بأكثر مما باح به لأي إنسان حتى أقرب أصدقائه اليه . فالجميع كانوا يعرفون أنه سيكون رئيس التحرير لأنه منذ البداية اتخذ ذلك الموقف . ولكنهم لم يعلموا أنه عقد النية على أن يصوغ بنفسه كل موضوع ، وكل سطر ، وسيتحكم في جميع الأنباء التي تحذف كما يتحكم في الأنباء التي تبسط وتدق لها الطبول

إن الصحيفة الموعودة ستكون صورة ينعكس عليها عقله ، وتوجيهاً يسيطر عليه روحه . وبمجرد إعداده الطبعة الأولى سيأخذها بنفسه ويقابل جميع مديري الأعمال الكبرى ممن اتصل بهم في المجتمع ويريهم إياها قائلا :

— هذا هو خط دفاعكم ضد الأفكار الانقلابية والتيارات الاجتماعية الهدامة . فأعلنوا فيها وساعدوها على التأثير في ملايين الجماهير ليكونوا معنا لا علينا

وسكت مستر كاميرون برهة ثم قال فجأة :

— لا أحسبك تحب العامة ؟

ولم يدر وليم ماذا يقول . فاختار الصدق وقال :

— إني أشفق عليهم واعطف عطفاً بالغاً

— إن الشفقة أم الزراية

— ربما . ولكني أحسبك تزدريهم أيضاً يا مستر كاميرون

مط مستر كاميرون شفته فى غير مبالاة وقال :
— إلى حد ما . كيف عرفت ؟
— عرفت هذا من أول زيارة لمخازنك يا مستر كاميرون . فلو لم تضمر فى نفسك احتقار العامة وعقولهم وأذواقهم لما استطعت أن تبيعهم هذه السلع !
— مرحى مرحى !
— إنى أعجب بك لحسن فهمك للناس على أساس واقعى . ولكنى أكثر منك نصيباً من المثالية وأعتقد أن العامة يمكن قيادتهم ورفع مستواهم
فنظر اليه مستر كاميرون نظرة جانبية وقال :
— أخشى يا وليم أن تكون مخطئاً فى هذا . ففى الناس غباوة شديدة
— إنهم كالقطعان من السائمة يمكن على الأقل توجيههم إلى ناحية معينة وتحويلهم عن ناحية أخرى كما تفعل أنت فى مخازنك . فبنفوذك التجارى تستطيع أن تجعلهم يشترون كل ما هو أحمر اللون إن خطر لك أن تشيع تلك الموضة فى أى موسم
— أنا فى الواقع لا أبالى ماذا يشترون ماداموا يشترون
وتراخى الحديث بعد ذلك ثم تناول مستر كاميرون صحيفته فجعل يقرأ فيها نحواً من عشر دقائق وبعد ذلك قال :
— سأضع تحت تصرفك المبلغ المطلوب منذ الغد ، وأريد منك أن تشرع فوراً فى الاستعداد للزفاف فى أقرب وقت
فتضرج وجه وليم بالحمرة القانية وقال :
— ما من شىء يسرنى أكثر من هذا يا مستر كاميرون



وفى يوم زفافه كانت الشمس مشرقة كأنها أخرجت للناس بتوصية خاصة . وكانت الكنيسة الكبرى فى الشارع الخامس غاصة بالناس . ودخلها كما يدخل الملوك لا ينظر إلى أحد غير شاعر بوجود إنسان . وإلى جواره سارت كانداس فى خيلاء لا تقل عن خيلائه . ولكن خطوته كانت تسبق خطوتها فى حزم وثبات
لقد بدأ وليم لين زحفه الظافر فى معركة الحياة

عاشقتان جديدتان

عقدت خطبة كليم على هنرييتا فجأة وبغير تدبير . بل فى شىء كثير من الارتباك والخجل . فالخطابات التى تبودلت بينهما حملت فى طواياها أشياء أعمق كثيراً من مدلول ألفاظها . كانت فى الواقع مناجاة سرية بين شخصين وحيدين فى الحياة وحدة كاملة . بل كانت خطبة صادقة بين روحين تآلفا واقتنع كل منهما بالآخر . ومع ان هنرييتا كانت تبدو فى المدرسة الثانوية فى تلك الضاحية الهادئة فتاة مطمئنة الى حياتها ودراستها ، تعيش عيشة راضية مع شقيقتها روث والجدين والخادم العجوز ، إلا انها كانت فى الواقع تشعر بوحشة كاملة وعزلة ثقيلة وكأنها تعيش فى جزيرة مقفرة من الناس

كانت روث محبوبة من الجميع لأنها جميلة . وكان من الممكن أن تتزوج فى سن مبكرة جداً قبل أن تدخل الجامعة . ولئن جمالت عطل فكرة الزواج وآثرت دخول الجامعة ، فما كان لذلك من سبب سوى انها كانت تنفق الكثير من وقتها فى زيارات طويلة لدار وليم . والاجازات الدراسية الطويلة لم تكن تقضى منها إلا بضعة أيام فى صحبة هنرييتا ، ريثما تعد حقيبة ملابس مناسبة لقضاء بقية الصيف مع وليم وكانداس

وفى الوقت نفسه لم يحدث مطلقاً أن نوقشت فكرة ذهاب هنرييتا لتمضية الصيف هناك . ولذلك كانت روث تقول لها :

— أشعر بالخجل منك . فأنا أهجرك وأذهب وحدى . وتبقين أنت وحدك للعناية بالجدين . انه اسلوك معيب من جانبى

— ولكن هذا هو ما أريده لنفسى

— لو انك عاشرت كانداس لأحببتها . فهى صافية النفس دمثة

— ليس عندى شك فى انى يمكن أن أحب كانداس . ولكن لا تنسى يا روث ان هناك وليم . ووليم هو وليم !

— إنه أخوك ...!

— وماذنبي في هذا ؟ ثم لاتنسى انى عرفتهقبل أن تعرفيه بزمن طويل. فأنا به أعلم. فقد اختليت بهسنتين ونحن فيمدرسة تشيفو بالصين حين كنت أنت في بكين مع أبينا وأمنا. إنه انسان لا يحب أحداً إلا نفسه

ومع هذا كانت هنرييتا تشعر بأن هناك شبهاً بينها وبين وليم. فهى مثله لا تفهم الفكاهة ولا تميل اليها. وفي القامة والملامح تشبهه أيضاً. ولكن فيما عدا ذلك ما أعظم الاختلاف! ففي أعماقها أمانة وإخلاص وبساطة وصفاء. وهذهصفات كانت تخيف الناسمنها وتفزعهم إلا من أوتيالشجاعة علىمواجهة نفسه. لأن النفوس الصريحةالصافية ترينا وجوهنا الحقيقية كأنها صفحةمرآة. ومن لم يرزقالشجاعة على رؤيةصورته الحقيقية حقيق أن يكره المرايا ويتجنبها ويفزع منها إن اعترضت طريقه

كان الشبان يخافونمنها. وكانت الشاباتينفرن منها. ومامن أحدأنس اليها إلا ذلكالشابالذى لمتره قط، وهو كليم ميلر. ففي ليالي الصيف الطويلة التي تثقل فيها عليها الوحدة كانت تجلسوتصب على صفحة القرطاس ذاتنفسها وتبثه كل مايدور بوجدانهافي غير تكلفأو احتجاز. وكانهو يردعلىخطاباتها في أيام الآحاد بعد أن يبعث بامه الى الكنيسة

وفي السنة الدراسية كانت تذهب الى كلية للبنات غير عالية النفقات. في حين كانت روث تذهب الى كلية من الكليات الراقية. وكان هذا باختيار هنرييتا نفسها لأنها شعرت منذ البداية ان روث قد اختارت بينها وبين وليم فانحازت الى وليم والى لون الحياة الذي اعتنقه. وكثيراً ما كانت تصغى اليها وهي تحدثها عن تلك الحياة مبهورة بمباذخها الدنيوية، فتشعر بالنفور

وفي ذات يوم فطنت هنرييتا الى شيء جديد في سحنة روث، وهي تحدثها عن زيارتها الأخيرة لوليم وكانداس وقد بدت شديدة الاعجاب أكثر من كل مرة. ولكنها لم تشأ أن تحدثها عن صديقها الذى لم تره قط. لأنها شعرت ان اسم كليم لا يليق أن يذكر في مقام واحد مع وليم وأشباه وليم. فهما من عالمين مختلفين

وفجأة رأتالدموع تنساب منعيني روث ثم طوقت عنق هنرييتابذراعيها وأخذ جسمها يرتجف. فعانقتها هنرييتا وراحت تربت عليها وتلاطفها وتناديها

بأسماء التدليل التى كانت تناديها بهـا وهى طفلة الى أن هدأت قليلا فقالت وهى تنشج :

— أنا أحب . أنا عاشقة

— ليس هذا سبباً للبكاء . فلاتجزعى ياروث . فذلك شىء لاغبار عليه . إنه ليس جريمة . ولـكن من هو الذى تحبينه ؟

— أرميا كاميرون

وحاولت هنرييتا أن تتذكر وجه أرميا كما رأته فى المرة الوحيدة يوم تخرج مع وليم من هارفارد . فتمثل لها ذا وجه نحيف شديد الشحوب ، فيه رقة كبيرة . بطىء الحركات جداً كأن شيئاً غامضاً فى أعماقه يؤلمه حين يتحرك . وكانت يداه على خلاف يدى وليم كبيرتين . وارتاحت الى هـذه الصورة ارتياحاً غريزياً . وسألتها :

— وهل يعلم ؟

— أجل يعلم

ثم انفلتت من حضن هنرييتا وجلست على الأرض ووضعت رأسها على ركبة أختها ومسحت دموعها بذيل ثوبها وقالت :

— هو الذى فاتحنى أولا . فما كنت أنا لأجسر

— إذن فأنتما مخطوبان

— أعتقد هذا . أو هذا ما سيكون بمجرد اجترائه على إعلان ذلك . إن كانداس تعلم طبعاً ولـكن لا أحد منا نحن الثلاثة يجرؤ على مفاتحة وليم

فقالت هنرييتا بشراسة :

— ولم لا ؟ ليس هناك سبب واحد يجعل هذه المسألة من شأنه

— يبدو أنها من شأنه الى حد ما

— هراء . . .

وخطر ببالها فى تلك اللحظة أن تحدثها عن كليم وحبها له ، ثم غيرت رأيها وقالت :

— سأتولى بنفسى إخبار وليم

— كلا . لا تفعلى . فأرميا يريد أن يخبره بنفسه فى يوم من الأيام . ولست أدرى لماذا يعتقد أن وليم سوف لا تروق له هذه الخطبة

— أنا أعلم لماذا سوف لا تروق له . إن وليم يريد من الناس الذين يعيش في بيتهم أن يعتقدوا أن لا أسرة له . فليس في العالم كله أناس أكفاء للانتماء اليه . حتى ولا أنت يا روث !

— ليس هذا صحيحاً . فوليم لطيف جداً معي في العادة

— لأنك تفعلين دائماً ما يريده منك

— وأنا في الغالب لا أرى داعياً للامتناع عن طاعته . وعلى كل حال فموضوع خطبتي يجب فيما يظهر أن يظل طي الكتمان بعض الوقت

ثم نهضت روث واتجهت إلى المرآة فسوت شعرها ، وبذلك انتهت لحظة المناجاة قبل أن تبوح لها هنريتا بشيء عن كليم



وانتهت إجازة الصيف وافترقت الشقيقتان بسبب دخول الجامعة . وكانت هنريتا تتلقى دائماً خطابات كليم يوم الأربعاء . أما يوم الثلاثاء فكان لا يخطر لها مطلقاً أن تنظر في صندوق الخطابات . ولكن حدث في هذا اليوم أن نظرت في الصندوق فوجدت خطاباً من كليم

« عزيزتي هنريتا

« لم يحدث لنا أن التقينا شخصياً من قبل . ولست أدري لماذا اختمرت عندي هذه الرغبة أخيراً . ولست أرى مانعاً من مصارحتك بما في نفسي منذ الآن

« يبدو لي أننا خلقنا لنتزوج ، مع أني لم أرك ولم تريني . ولكني رجل لا يبالي كثيراً بمناظر الناس . فلدينا شيء أهم كثيراً من هذه السطحيات . شيء مشترك يجمع بيننا هو اهتمامنا بلباب الأمور وبحسن الادراك وفهم البشر . هكذا أرى نفسي . وأرجو أن تكوني أنت كذلك . بل هذا هو تصوري لك فعلا

« ولست أدري لماذا لا أحب طريقة طلب اليد بالمراسلة . فان لم يكن عندك مانع حضرت لمقابلتك ، فلي إجازات متراكمة وقد نجحت في ادخار مبلغ من المال . وفي وسع بامب أن يساعد في مخزن البقالة بعد ساعات المدرسة . وبذلك يتسع أمامي الوقت لقضاء بعد ظهر يوم كامل في صحبتك

« وقد قرأت أخيراً كتاب ثروات الأمم وهو كتاب جيد . وعرض عليّ

صاحب المخزن أن يبيعني إياه . فاذا تم هذا لن أقنع به لأني أريد أن أشرع في إنشاء مشروعي الخاص بمخازن الطعام الرخيص في أماكن متعددة . وأعتقد أن المشروع ممكن التنفيذ . لأن الفلاحين يقبلون البيع بسعر زهيد إذا باعوا مباشرة لا عن طريق الوسطاء . وهناك عدد ضخم من الناس في أشد الحاجة لمزيد من الطعام ولأنواع أجود من التي يتناولونها في العادة

« وفي ذهني أيضاً أن أتمكن بمرور الوقت من إرسال الطعام إلى الصين لمعونة الجياع هناك . ففكرتي في الواقع فكرة عالمية لا محلية

« ورجائي إليك يا هنريتا ألا تسيئي بي الظن ولا تحسبيني أهتم بالمنفعة المادية وتكوين الثروة . بل أرجو أيضاً ألا تظنيني مهتماً باشباع بطون الناس فقط . وإنما فكرتي الأساسية أن الناس متى اطمأنوا من جهة بطونهم استطاعوا أن يوجهوا جهودهم وتفكيرهم إلى ماهو أسمى من القلق على الطعام

« إني لم أنل قسطاً من التعليم يسمح لي بتثقيف الناس وتغذية عقولهم . ولكني أستطيع أن أغذي أبدانهم . وفي اعتقادي أن الطعام حق لجميع البشر كالماء والهواء سواء بسواء . ولهذا لاينبغي أن نجشمهم طلبه . بل ولا العمل في سبيله . لأن الجميع لهم حق الحياة

« وبهذه المناسبة أحب أن تضربي صفحاً عما تشعرين به من مرارة بسبب سلوك شقيقك وليم نحوك . وتذكري أني مهتم جداً بتعويضك من اهتمامي واحترامي عن كل ما فاتك في هذا السبيل

المخلص

كليم ميلر »



هذا هو الخطاب الذي تلقته هنريتا يوم الثلاثاء وأبقته تحت وسادتها طول الليل . واستيقظت مرتين لتعيد تلاوته في ضوء الشمعة الخافت في الحجرة التي تتقاسمها مع زميلتها في الدراسة بالقسم الداخلي . وكانت في كل مرة تطيل التفكير

إنها بطبيعة الحال تريد الزواج من كليم ميلر . وما من رجل سواه طلب منها أن تتزوجه . بل ما من رجل فكر في دعوتها لمراقصته . ومع هذا فهي تريد أن تمضي في مسألة الزواج من كليم وفي حبه الهوينا . لأن علاقتها به هي

الشعلة الوحيدة المضيئة فى حياتها . ولئن خسرتها فلن تكون لديها شعلة سواها ما عاشت

كانت تشعر بغبطة شديدة وهى تضع رسالته الساذجة فى صدرها فتبعث فى كيانها الدفء بما تحمله من وعود الحب والحنان . وإنها لتعلم أنها تستطيع أن تثق بحبه أكثر من ثقتها بحب والديها . وغداً ستختلى بنفسها فى المكتبة وتكتب اليه خطاباً تبثه ما بنفسها وتدعوه للحضور لأن عندها مثل ما عنده

وغداً ذهبت إلى المكتبة وأخذت تخط على القرطاس كلماتها فى انفعال وحماسة . وإذا بزميلتها فى حجرة النوم تقبل نحوها وهى تغالب الضحك وتهتف بها :

— مرحى يا هنرييتا . هناك رجل يريد أن يقابلك ..

— رجل ؟ مستحيل !

— بل صحيح . فهو شاب بارز العظام جداً . نحيف جداً . مغطى بالتراب من رأسه إلى قدمه . أما ملابسه .. أف !

فأدركت على الفور أنه كليم ! ولم تنتظر بقية الوصف بل أسرعت تهبط السلالم قفزاً ثم قطعت البهو لاهثة الى حجرة الجلوس . وكانت فى تلك الساعة خالية إلا منه ، وقد وقف فى وسطها ينتظرها . فلما رآها شد على يدها بحرارة وقال :

— كان لابد لى من الحضور . لأنى لم أستحب فكرة طلب يدك فى خطاب . فعلى الشاب الذى يريد أن يتزوج فتاة أن يذهب اليها ويقول لها هذا مواجهة

— لا بأس . فانى لم أقم وزناً للشكليات

ووقف كل منهما ينظر الى الآخر ويكاد يشرب تفاصيل تكوينه شرباً . كان كل منهما عاطلا من الوسامة . فيه صراحة وأمانة واستيحاش . وكأن كلا منهما يرى فى صاحبه صورته منعكسة فى مرآة مصقولة

وبصوت مختلج سألها وهو يعبث بقبعته :

— هنرييتا . أعندك مثل ما عندى ؟

فتضرجت وجنتاها . إنه إذن لايبالى بمنظرها . لايبالى بشعرها الخشن .

كأنه شعر فرشاة . وبأنفها القبيح وصغر حجم عينيها الرماديتين وفمها الواسع كأنه فم فرس !

وبصوت مختلج أيضاً أجابته قائلة :

— ربما لم تحبني بعد أن تعرفني

— إن كل مافيك يشع ضياؤه منك . فأنت الطراز الذى أنشده . أنشد إنساناً أضع فيه ثقتي وإيماني . كم أنا بحاجة الى الايمان

فتنهدت واختلج بدنها كله وهى تقول له :

— ما من أحد قبل اليوم شعر بحاجته الى . . آه يا كليم !

وبخجل وارتباك أحاط كل منهما الآخر بذراعيه ثم التقت شفاههما فى قبلة ساذجة تنم عن افتقار تام الى الخبرة والتجربة

وقضى معها بقية اليوم وقد نسيت أبحاثها الكيماوية . تجولا فى كل مكان وطافت به المعمل وشرحت له الأبحاث التي تهتم بها . وكان يصغى لها باهتمام ويحاول أن يفهم . ثم قال لها بلهجة قطعت قلبها :

— كم كنت أتمنى أن أتعلم . . .

— ولماذا يا كليم لا تترك مخزن البقالة وتدخل الجامعة ؟ فمعظم الشبان يدرسون ويعملون فى الوقت نفسه لكسب قوتهم

فهز رأسه معترضاً وقال :

— لم أعد أستطيع . فات الأوان . وقد قطعت شوطاً طويلا فى طريق نحو غايتى . وكل ما أنا متشوق لتعلمه هو بعض الكيمياء العضوية والغذائية كى أكتشف للناس أغذية جديدة رخيصة كاملة القيمة . فهل تعلمين أحداً اتجه هذا الاتجاه ؟

— لا أحد فيما أعلم . . .

وركبا قطار الثامنة مساء الى المدينة القريبة حيث دعاها لتناول عشاء من السندوتشات فى مطعم بحى العمال

وكانت الليلة دافئة والظلام ليس دامساً حينما فرغا فخرجا يتمشيان معاً على رصيف المحطة وقد تشابكت يداهما . وصار من الصعب عليهما احتمال فكرة الفراق بعد أن التقيا . وسألته :

— متى سنلتقى فى المرة القادمة ؟

— لست أدرى . وأحسبنى ينبغى أن أرسل إلى أبيك أطلب يدك . أليست هذه هى الأصول ؟

— كم أعنى لو لم نضطر لاخبار أحد بحبنا . ليتنا ننطلق معاً هكذا فى صمت دون أن يعلم أحد فنذهب بعيداً حيث نعيش حياتنا

— أظن هذا لا يليق . وسأشعر براحة ضمير كبيرة حين أ كتب إلى والدك أخبره بقصتنا كلها . بل أحسبنى ينبغى أن أخبر وليم

فضربت أرض الرصيف بحذائها وصاحت :

— كلا ! أريده ألا يعلم إلى أن نتزوج . . .

فظهر الجد على وجه كليم وقال :

— ألا تريدين أن تخبريه حقاً ؟

— نعم . إنه آخر إنسان أحب أن يعرف

— ولـكنه سيعرف إن عاجلا أو آجلا

— دعه يعرف من تلقاء نفسه

ثم أقبل القطار فأغرق صوتهما . وتبادلا قبلة أخرى على عجل . ثم استقل القطار ووقفت هى تملأ منه عينيها إلى أن غاب عن ناظريها



وفى ليلة رأس السنة تم زفاف روث . وأصرت على أن تكون هنرييتا وصيفتها . وبعد الاحتفال ذهب الجميع إلى الميناء لتوديعها وزوجها لأنهما سافرا فى اليوم نفسه لقضاء شهر العسل فى فرنسا

ذهب الجميع ماعدا وليم الذى اعتذر بعمل عاجل . فقد كان غير مستريح لمشاهدة الناس إياه فى صحبة هنرييتا وجديه العجوزين المتواضعين . ولم يوجه للثلاثة الدعوة لقضاء الليلة فى بيته فسافروا فى اليوم نفسه

وفى تلك الليلة فاتحت هنرييتا جديها فى أمر كليم . وحاولت أن تشرح لهم مبررات هذا الزواج الذى يبدو غريباً فى نظرهما

— أنه الشخص الوحيد فى العالم الذى يعرف عنى كل شىء

فهزت جدتها كتفيها . أما جدها فقال :

— لعلكما لا تفكران فى العودة إلى بلاد الصين ؟

— لست أدرى ماذا يريد كليم أن يصنع . فهو مشغول بالتفكير فى العالم كله . وحيث يذهب سأذهب أنا بطبيعة الحال

وكان الشيخان متعبين فلم يسألاها عن شىء آخر ، وصعدا إلى حجرتيهما وتركاها تكتب خطاباً إلى كليم

— كليم . هذا العام أحصل على البكالوريوس . وأريد أن أتزوج فوراً فلا رغبة لى الآن فى دراسة الدكتوراه

ولم يعارض كليم . بل رتب الأمر بحيث سافر فى يوم من أيام شهر يونيه بعد تخرجها مباشرة وقام بزيارة جديها من تلقاء نفسه إراحة لضميره . وكان الشيخان متحفظين فى أول الأمر معه . ولكن بعد عشر دقائق انطلقا على سجيتهما ، وقد أدركا أنه لا حيلة لهما فى منع هذين الشابين من زواج بدا لهما غير متكافىء

وحين ودعته قال لجدها :

— أرجو أن تتصل بالدكتور ميلر ومسز ميلر وتخبرهما بكل شىء

— بل نترك لك أنت هذا الأمر . فالمسألة مسألتكما أولا . ونحن لا يد لنا

— لولا العجلة لانتظرت رد الدكتور ميلر ، ولكن ظروفنا تقتضى الزواج بسرعة

وبمجرد حصول كليم على ترخيص الزواج ذهب الجميع إلى الكنيسة . وكان هؤلاء الجميع عبارة عن الجدين والعريس والعروس . وارتدت هى ثوبها الأصفر الجديد . واشترى لها خاتماً من طراز عتيق وباقة أزهار من بائعة متجولة فى الطريق

وبعد انتهاء مراسم الزواج أكلا كعكة صنعتها الخادمة العجوز ونسيت أن تضع فيها السكر

وكانت أعصابهما متعبة جداً ، فقبلا الجدين ودخلا مخدعهما فاستغرقا فى نوم عميق

نحو الهدف

ابتاع كليم مخزن البقالة من مستر جينيسن بعد زواجه من هنرييتا ، وكان بامب قد تخرج فجعل منه شريكا وصار يعامله باحترام ، لأنه كان يعتبرها معجزة كبيرة ان الفتى اليتيم الضال شب فصار شاباً جاداً يلبس النظارة ويقبل على عمله بجد وأمانة

وفى بعض الليالى كان كليم يجلس بجوار هنرييتا فى الفراش ويتناول التوراة القديمة فيطالع لها منها بصوت مسموع . كلا ، لم يكن يذهب الى الكنيسة . ولا هى كذلك كانت تذهب . ولم يكن من عادتهما أن يصليا بانتظام فى أوقات معينة . بل فقط حين يتراءى لهما ذلك ويشعران بالحاجة اليه . أما القراءة فى التوراة بصوت مسموع فكانت شيئاً محبباً الى نفسه بين حين وحين

وفى تلك الليلة فتح الموضع الذى تناول فيه المسيح الأرغفة والسمكات فأطعم منها الجموع الغفيرة . وتبقت بعد ذلك سلال كثيرة من لقم الخبز ومن السمك . وكان يقرأ متمهلا جداً كأنما يقرأ لنفسه حتى إذا فرغ من تلاوة هذا الفصل أقفل التوراة واضطجع على الوسادة وعقد يديه وراء رأسه وقد ثبت عينيه بالسقف . ثم قال :

— هذا ياهنرييتا هو هدفى . ولكن على طريقتى الخاصة طبعاً . بالعمل الواقعى لا بالمعجزة السماوية . بيد انى أحب بين الفينة والفينة ان أقرأ كيف استطاع غيرى أن يحقق هذا الهدف . أجل ان هدفنا واحد وهو إطعام الجياع . ولا بد لى من أن أعثر على وسيلة أجعل بها الطعام رخيصاً ياهنرييتا فى متناول كل انسان . وليتنى أستطيع أن أجعله بالمجان . لأن هناك ولا شك وسيلة أجهلها يستطيع بها الانسان الجائع أن يحصل على الطعام بغير ثمن . ولكن ماهى هذه الوسيلة ؟

وفى سيارة من أوائل ما أخرجته مصانع فورد جعل كليم يطوف أنحاء

الريف وبجواره بامب فى يده قلم وكراسة . وفى تلك الأصقاع المتطرفة حيث تتعفن الحاصلات الزائدة عن الحاجة لبعدها عن السكك الحديدية كان يجد طريقة لجلب هذا الطعام بالعربات أو على ظهور الخيل . الى أسواقه الخاصة التى يقيمها بالقرب من تجمعات العمال وغيرهم فى ضواحى المدن ويبيع فيها هذه الأغذية الجيدة بأقل بكثير من سعر السوق . لم يكن يبحث عن الربح بل عن مجرد تغطية المصاريف

وبالرغم من أنفه بدأت النقود تنهال عليه . وفى ذات يوم نظر الى بامب وقد رفع حاجبيه دهشة ثم قذف اليه بمجموعة من الشيكات قائلا :

— مبالغ أخرى للايداع فى البنك يابامب . يجب أن أفكر فى طريقة أنفقها بها . فكل ما أحتاج اليه من النقود هو ما يكفى لاقامة سوق جديدة . ولكن النقود لا تكف عن الانهيال علينا . ويخيل الى انه لا مندوحة من التوسع فى مشروعنا خارج نطاق الولاية . وربما فى العالم بأسره

وفى هذه اللحظة تحرك فى قلبه وتر قديم هو الحنين الى مسقط رأسه . ان هذا المال المتراكم يمكنه فى النهاية من العودة الى الصين . كلا ، انه لا يريد أن يقيم هناك وإنما مراده أن يسير مرة أخرى فى تلك الشوارع المتربة ، وأن يدخل عتبة بيت مستر فونج ويقف بنفسه برهة على قبور والديه وشقيقتيه فقد كتب اليه يوسان تلميذه القديم ابن مستر فونج ان والده ذهب خلسة فدفن هذه الجثث فى خارج المدينة فوق ربوة من روابى الغرب . بين جثث ذويه شخصياً

وذات يوم من أيام شهر نوفمبر قرأ فى الصحيفة الاقليمية خبراً منزوياً كان له عظيم الأثر فى نفسه . ومفاد هذا الخبر ان امبراطورة الصين العجوز ماتت. وكان هذا فى حد ذاته كافياً لتغيير جو ذكرياته الحية

ماتت إذن هذه العجوز الشريرة وتخلصت بكين من وجودها الخبيث وتأثيرها الشيطانى . لقد انتقمت الأيام إذن لوالديه وشقيقتيه الصغيرتين وأقفل حساب هذا الماضى . والآن إذن يستطيع أن يذهب الى الصين بنفس مستريحة

— هنرييتا . سنسافر فوراً الى الصين

— وهو كذلك يا كايم



وكان دخولهما الى بيت مستر فونج يوماً أشبه بالأعياد فى تلك الأسرة .

فالرجل قد علت به السن ولكنه مازال صحيحاً قوياً . ويوسان تزوج وأنجب أربعة أولاد . أما مسز فونج فقد شغلت بأمر هنريتا ، من زاوية عجيبة جداً

— وأين أطفالك ؟

— ليس عندى أطفال

فحلقت وسألتها :

— وكيف لا يكون لديك أطفال ؟ هل تصيبهم الروح الشريرة ويموتون؟

— بل لأنى لم أحبل مطلقاً

— والآن ماذا تصنعين من أجله ؟

والضمير فى اللغة الصينية يعود دائماً على الزوج الذى لا يذكر تأدباً

— وماذا أستطيع أن أصنع ؟

فاقتربت منها مسز فونج وقالت لها بطريقة غامضة :

— يجب أن تعالجى ضعفك . فكلاكما نحيف جداً . امكثى معنا مدة كافية وسأطعمك كميات كبيرة من السكر الأحمر وعصيدة الدم . فهذا علاج رائع للزوجات اللواتى لايحبلن بسرعة . وأراهنك انك بعد شهر واحد ستحبلين. زوجة يوسان حبلت بعد أسبوعين . هل أتممت أنت عاماً ؟

— أكثر من هذا بكثير

— ما كان ينبغى لك أن تنتظرى هذه المدة كلها . كان يجب أن تأتى الينا قبل ذلك . ألا يعرفون فى بلدكم ماذا يصنعون فى هذه الحالة ؟

— ربما كانوا لا يتلهفون كثيراً على الأطفال

ولم تستطع هنريتا أن تشرح لهذه المرأة التى كانت أماً مائة فى المائة ان كليم كان لها ولداً وزوجاً فى الوقت نفسه . وانها لا تبالى كثيراً ألا يكون لها أطفال ، لأنها لا تريد أن توزع نفسها بينه وبين أحد آخر

— ربما كان من الأحسن أن يتخذ زوجة أخرى تنجب لكما أطفالا

— هذا ليس مسموحا به فى بلدنا

— عجبا . وماذا تصنع إذن المرأة التى لا أطفال لها ؟

— تبقى بغير أطفال

— ولكن ماذا يقول هو ؟

— إنه طيب جداً معى

— لابد أنه طيب . ومع هذا فليس من الحكمة أن نعول كثيراً على طيبة الرجال . اسمعى أيتها الأخت الصغيرة . يجب أن تشربى السكر الأحمر مذاباً فى الماء الحار . وسأذبح لك أوزة من أوزنا السمين وأصنع لك من دمها عصيدة تأكلينها ساخنة . آه لو استطعت أيتها الأخت الصغيرة أن تشربى دمها وهو ساخن طازج . إنه يصنع الأعاجيب

— كلا لا أستطيع

— هذا ما صنعته زوجة ابنى . وبسرعة شعرت بالسعادة فى داخلها . ولكن ليست جميع النساء سواء . فهناك من لا يستطعن شرب الدم ولو من أجل الخلف . لا بأس ، سأضعه لك فى العصيدة . وبعد ذلك سترى !

أما زوجها مستر فونج فكان مشغولا بالاصغاء الى الشرح الذى يلقيه كليم عن مشروعات التغذية على نطاق عالمى . وبعد أن أطال الاستماع قال له :

— إنك تتعب نفسك بغير مبرر !

— وكيف ذلك ؟

فتنحنح مستر فونج ثم تفل فى قطعة من الورق البنى قذف بها تحت المنضدة وقال :

— لأنك تظن وأنت شخص واحد أن فى مقدورك أن تطعم جميع الجياع فى العالم . وهو حلم خطر أيها الأخ الصغير لا يجدى عليك سوى آلام المعدة التى تعانى منها . إن سببها القلق والتعلق بالأوهام المزعجة التى لا تنال . وليس أخطر على إنسان من أن يعتقد أنه يستطيع أن يقوم بعمل جميع الناس مجتمعين ! إنه إذن يظن نفسه إلهاً . والرأس الشامخ جداً ولو لفعل الخير تصيبه الصواعق بسرعة أيها الأخ الصغير ! فلا تسأل نفسك إلا عن ذويك . أما خارج هذا النطاق فلا مسئولية عليك قبل الناس ، ولا قبل السماء !

ثم مد مستر فونج العجوز يده ورفع القطة العجوز التى كانت جالسة تحت مقعده ، ووضعها على بطنه الكبير وقال :

— إنها عمياء . وأنا لا أطعم أى قطة فى البيت ، حتى هذه القطة . لأن القطط تقتنى كى تفتك بالفيران ، لا للتدليل . ومع ذلك فالقطط الأخرى تأتى كل يوم بفأر مما تصيده الى هذه العجوز العمياء فتأكله ! . . إنى طبعاً أهتم جداً بإطعام أسرتى ، وكل من يتبعنا ويعتمد فى معيشته علينا . أما ما عدا ذلك فلا أشغل نفسى به ، كى تطول حياتى . فمن يحمل فوق طاقته من الأعباء

لا بد أن ينوء تحتها ، ولن يستطيع البلوغ بها الى أى هدف
ولما خرج كليم مع هنريتا للنزهة فى الشوارع ، قال لها :
— إنى لا أستطيع أن أجد صدى لآرائى هنا . وربما كان ذلك لأنه لا يوجد جياع كثيرون .. وحتى المتسولون أميل إلى البدانة ... ولكنى آمنى أن أرى « سون ياتسن » شخصياً .. لأنى أشعر بقدرتى على إقناعه برأيى
— وكيف يمكن أن نعثر عليه وهو مختف من وجه الحكومة التى تطلب رأسه ؟
— يخيل إلىّ أن يوسان يعرف مقره ...
وفى آخر يوم من أيام إقامتهما فى بكين ، زارا قبر والدى كليم وشقيقتيه فى صحبة مستر فونج . وبعدها شكره كليم على جميل صنيعه وكريم ضيافته ، وانتحى به جانباً ثم طلب منه أن ييسر له الاجتماع بسون ياتسن الزعيم الثائر . فأعطاه خطاباً مقفلا ، وطلب منه ألا يفتحه إلا وهو فى عرض البحر ...
وعلى ظهر الباخرة فتح المظروف ، فوجد فيه ورقة بها عنوان فى الحى الصينى بمدينة سان فرنسسكو ... مع كلمة السر التى تفتح له باب المخبأ السرى للزعيم الكبير ...
وكان العنوان فى الواقع عنوان كواء صينى ما ان سمع كلمة السر حتى أدخله من باب خلفى الى حجرة داخلية حيث وجد سون ياتسن جالساً الى منضدة صغيرة تجاه وقال له : « حضرت من طرف مستر فونج بائع الكتب فى بكين . وقد أتيتك بفكرة قد تكون نافعة لك »
— ليس عندى مقعد أقدمه لك . فخذ مقعدى
ونهض الرجل . بيد أن كليم رفض . وعندئذ دخل الكواء بمقعد آخر فجلس عليه كليم . وعندئذ قال سون ياتسن بصوته الهادىء جداً :
— استمر فى حديثك من فضلك . فانى سأرحل عما قريب الى بلادى . وهذه الأيام الاخيرة ، أو ربما كانت الساعات ، ثمينة جداً
— إنى أتيتك لأتحدث اليك عن الطعام . وأخبرك بما أعتقده فى هذا الموضوع . إن الناس لن يعيشوا فى سلام دائم مالم يتيسر لهم الحصول على الطعام بانتظام وبطريقة مضمونة . وقد أعددت لذلك برنامجاً
ثم مال الى الأمام وراح يشرح برنامجه باللغة الصينية وبطلاقة . وتوقف الكواء عن الكى وراح يصغى لكلمات كليم الفياضة وهو يغمغم بين حين وحين : « صدقت صدقت » ..

وكانت عينا كليم، وهو يتكلم، مثبتتين في وجه الزعيم الثائر العظيم، يدرس جبهته العالية وفمه الذي يدل على الكبرياء وأنفه الواسع ودماغه الكبير. ولم يدر هل استطاع التأثير في الرجل أو لم يستطع. لأن وجهه كان جامداً لا تعبير فيه

والحقيقة أن سون ياتسن كان مستمعاً من النوع الممتاز. لم يقاطع ولم يستوضح. بل أصغى بكل اهتمام. فلما فرغ كليم من بسط مشروعه الذي ينطوي على تنظيم توزيع الطعام في الصين لمنع المجاعات وإرضاء الجماهير هز سون ياتسن رأسه. ثم قال:

— تحت يدي ميزانية. وبهذا المال أمامي أن أختار بين إنشاء جيش يحارب أعداء الشعب فأقيم حكومة صالحة للشعب وبالشعب ومن الشعب. أو أقوم على حد تعبيرك بمجرد إطعام الشعب

— إن حكومتك لن تقف على قدميها ما لم تطعم الشعب

فابتسم سون ياتسن ابتسامته الجذابة المشهورة وقال:

— لم أقم هذه الحكومة بعد. والأهم يا صديقي قبل المهم

— إن الشعب لن يؤمن بك إلا إذا أطعمته. فاذا أطعمته أمكنك أن تقيم الحكومة التي تريدها. أما العكس فلا

— مسألة فيها نظر. ورأيي أنا أنني إذا أقمت حكومة صالحة فسأستطيع بعدها أن أطعم الشعب

فنهض كليم واقفاً ثم قال:

— أحسبني فشلت في إقناعك. وأحسبك ستفشل أنت أيضاً. ستفشل حكومتك وسيأتي إنسان آخر وستكون وسيلته للوصول إلى الحكم أن يعد الشعب بالطعام. وربما لم يقدم لهم الطعام لأن شدة الجوع قد تجعل الشعب ينقاد لمجرد الوعد باللقمة!

ولم يجب سون ياتسن لحظة على هذا النذير. ثم بعد ذلك نهض فقال بكل أدب واحترام عرف عن الصينيين:

— أشكرك يا سيدي لأنك بحثت عني. وأشكرك مرة أخرى لاهتمامك بشعبي. ولئن لم تقنعني، فقد أفلحت على الأقل في التأثير في قلبي

— طاب مساؤك. وأتمنى لك حظاً سعيداً على كل حال. وليتك لا تنسى ما قلته لك مع أنك لم توافق عليه، لأنني أعلم أن الصواب في جانبي

غاية الحيـــاة

شعرت كانداس أن وليم أصبح ضيق الصدر بها . أجل إنه ينحنى كالعادة ليقبلها ولـكن روحه بعد أعوام الزواج الأولى مختلفة . هناك شىء أشبه بجو الشتاء الثقيل يتجمع فى نظراته وانطباق شفتيه . وحين يفتحهما يكون صوته رسمياً

— يؤسفنى أنى تأخرت

— هل تأخرت حقاً ؟ إذن فقد تأخرت أنا أيضاً . لأنى دخلت منذ قليل بعد سهرة فى المسرح

— وهل كانت الرواية جيدة ؟

— لا أظنها كانت تعجبك

ثم نهضت من المقعد الطويل الذى كانت مستلقية فيه منذ ساعات تنتظره ونظرت من النافذة ، وكانت الحديقة الواسعة بديعة التنسيق مضاءة بمصابيح الـكهرباء على مسافات متباعدة . ثم قالت :

— من حسن الحظ أن المربية تعنى جيداً بالأولاد وتكثر من اللعب معهم فى الحديقة . ولـكن هذه الانجليزية مجنونة بالهواء الطلق فلا تدخل حجرة إلا وفتحت نوافذها على مصراعيها . وتزعم أن ذلك ضرورى للصحة

وجلس وليم فى مقعد مريح اتخذ فيه جلسته المـألوفة التى تشبه « البوز الفوتوغرافى » . وقد وضع ساقاً على ساق . وأياً كان زى ملابس الرجال فهو يرتدى دائماً بدلة رمادية اللون قاتمة فيها خطوط باهتة بيضاء . أما رباط عنقه فأزرق قاتم ليست به أية اشارة

جلس ولم يعلق على عبارتها الأخيرة . وقد كانت هذه عادته منذ الزواج . فتعودت أن تتكلم وتسأل ولا تنتظر منه رداً . فكان كلامها جعجعة عقل فارغ

لا يعنيه أن يكون لحركته محصول . وقد اكتشف تفاهة عقلها بعد الزواج بقليل فلم يعد يلقى الى كلامها بالا ولو على سبيل التظاهر

وجمعت هي ثوبها ثم تقدمت من مائدة الزينة وراحت ترجل شعرها القصير وقد رأت في سحنته أن شيئاً ما ليس على ما يرام . ولم تشأ أن تسأله فيتكلم من تلقاء نفسه إن أراد أن يخبرها . وربما كان ما ضايقه هو رائحة الشواء المتصاعدة من المطبخ في الطابق الأرضي. لأن الخادمات ربما تركن بابه مفتوحاً بالرغم من الأوامر المشددة . وربما كان أيضاً لأنه وجدها قصت شعرها على غير إرادته

وفجأة قال وليم :

— تلقيت اليوم خطاباً من والدي

— هل هناك شيء أزعجك في هذا الخطاب ؟

— لقد قررا الحضور أخيراً إلى الوطن

— هذه أنباء طيبة . أليس كذلك ؟ إني لم أر والدك قط والأطفال لم يروا جديهما

فقطب حاجبيه الكثيفين واكتسى وجهه بالعبوس حتى لقد اختفت عيناه

— ولكن هذا الوقت لا يناسبني . فقد قررت إصدار الصحيفة الجديدة فوراً بدلا من الانتظار حتى الربيع القادم كما كنت عازماً

— ولكن لماذا تنشيء صحيفة جديدة وأنت تربح أكثر من حاجتك من المال ؟ إنك بهذا تضحي بنفسك وبنا بغير مقابل أيها العزيز

وتركت مائدة الزينة ثم أسرعت الى جانبه وجلست على ركبتيها ووضعت يديها في حجره وقالت له :

— انى أضطر الآن أن آخذ الأولاد إلى كل مكان من غيرك. وفي الصيف الماضي لم تحضر إلينا على الشاطيء إلا في عطلات آخر الأسبوع . إن هذا ليس صواباً يا وليم وخصوصاً بعد أن تجاوز الأولاد دور الطفولة. وأنا لم أقل شيئاً عندما كنت ناشئاً . أما الآن ولك صحيفتان كبيرتان وملايين في البنوك فمن حقي أن أخرج معك في بعض الأحيان ومع الأولاد الى المسارح والنزهات

وكان واعياً تمام الوعي لوجهها الجميل بالقرب من وجهه . وكان يتمنى لو

استطاع أن ينقاد لها . بيد أن قوة خفية في داخله كانت تبعده عنها . لم يكن يدرى ما هي ولـكنه كان يشعر أنها كحلقة من حديد تحيط بقلبه . كانت تمنعه أن يمنح نفسه لأى إنسان حق ولا لأولاده . كم تمنى أن يلعب على الأرض ويتدحرج على البساط كما يفعل أرميا مع بناته الصغيرات . ولـكنه لم يستطع ولم يكن يشعر بمنتهى الراحة إلا وهو جالس وراء مكتبه الـكبير يصدر الأوامر الى الرجال الذين يستخدمهم

ومع هذا فقد تناول يديها بلطف وقال لها :

— اعتقادى يا كاندى أن المسئولية الملقـاة على عاتق رجل يغذى عقول وأرواح ثلاثة ملايين من المواطنين مسئولية عظمى

— ثلاثة ملايين ؟

— هذا هو عدد قرائنا اليوم بحسب آخر إحصاء . ويقدر مدير الادارة أن التوزيع سيتضاعف فى خلال سنة واحدة

— لقد نجحت نجاحاً عظيما يا وليم . ومع هذا لا يبدو أنك متلذ بحياتك كثيراً

— ليست الحياة فى اعتقادى مجرد لذة

وكانت لا تزال جالسة على الأرض بجواره فتناولت إحدى يديه فى تراخ وعبثت بأصابعها ، فسألته وهى لا تتوقع جواباً :

— وما هى غاية الحيـاة اذن ؟ أنا شخصياً لا أعلم ولا أظن أحداً يعلم بالضبط . فنحن هنا وهنا سنبقى . وهذا كل ما هناك

وكان لا يحب لعبها بيديه فسحب يده بلطف وأشعل سيجارة ثم قال :

— ان الحياة على كل حال لها غاية أكثر من المتعة

فنهضت على قدميها وتناولت رأسه بين يديها ثم قبلت جبينه وقالت :

— أيها العزيز المسكين . إنك جاد أكثر مما يجب

— لست بحاجة إلى شفقتك

— لم أقصد هذا ياوليم وإنما عنيت أننى أحب الحياة كثيراً وأستمتع بها

فنهض وغادر الحجرة . أما هى فلم تبال بتباعده لأنه كان يسعدها أن تحبه والحب كما قال لها أبوها كاف بنفسه

اب .. وابن

حينما وقع نظر وليم على والده وهو يهبط من القطار ، أدرك لأول وهلة أنه أمام رجل مسن عاد إلى الوطن كي يموت . وأفزعه هذا الادراك . وكانت انفعالاته حين تتحرك فى صدره تلجمه عن الكلام . وعن جانبيه وقفت روث وكانداس وأرميا . أما الأطفال فلم يحضروهم لأن الساعة كانت متأخرة

وسقطت أضواء المحطة على وجه والده الأبيض ، وكان قد أطلق لحيته بيضاء كالفضة . أما والدته فلم تزدها السن إلا شيئاً من البدانة . بيد أن صحتها ظلت على حالها . وأحس بقبلتها الحازمة على خده دون أن يحول عينيه عن وجه والده . إن والده هو هذا الرجل الذى ظهرت عليه الشيخوخة الشديدة وقد أطبق شفتيه الشاحبتين بهدوء بين طوايا لحيته البيضاء وليس فى وجهه من علامات الحياة إلا عينان متوهجتان سوداوان . فتناول يد أبيه فاذا هى حفنة من العظام . وعندئذ صاح وهو يحيط والده بذراعيه : « أبتاه ! ... »

ثم التفت نحو أرميا وقال له :

— تكفل أنت بهم يا أرميا . بالنساء والحقائب . وسأمضى أنا بوالدى

وعندئذ صاحت أمه :

— ولكنه أحسن من ذى قبل بكثير . لقد كان مريضاً جداً

— ولكننى لا أراه بخير . . .

وشعر برغبة شديدة فى البكاء فقاد والده من ذراعه الى باب السيارة الذى فتحه السائق فساعده على الدخول ثم لفه فى الغطاء الدافىء وصاح بالسائق :

— الى المنزل مباشرة يا هارفى

فتحركت السيارة الضخمة ببطء وسط الزحام وجلس وليم يفحص والده بعينيه ثم قال :

— كيف حالك يا أبى ؟

فابتسم الدكتور لين وقال له :
— لا إخالك كنت تتوقع أن تجدنى على حالى بعد كل هذه السنين ؟
— ولكن هل أنت على ما يرام ؟
— ليس تماما . . .
وبدا الشيخ هادئاً صبوراً صافى النفس مطمئناً ، فشعر وليم كأنه يراه لأول مرة . بل أحس برغبة فى أن يقبض على يد أبيه ويبقيها فى يده . لولا أنه خجل
— وهل استشرت طبيباً ؟
— أجل . وقد استحسن أن يفحصنى الاخصائيون هنا
— وماذا قرر ؟ وكيف شخص الحالة ؟
— يبدو أن عندى تعباً مزمناً فى المصارين دون أن أدرى نتج عنه خلل فى تركيب الدم يقضى على الكرات الحمراء أولا بأول
— كان ينبغى أن تفطن أمى للحالة
— إن الانسان لا يمكن أن يفطن إذا كان يعيش معك فى نفس البيت سنوات طويلة . وأنا نفسى لم ألحظ تغيراً
— ولكنك ستستريح كل الراحة
وتكلم وليم فى البوق الموصل إلى السائق يأمره بالاسراع . فانسابت السيارة بهما بكل راحة . واضطجع الدكتور لين فى مقعده المريح وأغمض عينيه كمن يستسلم للنوم . فراح وليم يرقبه فى قلق عميق . إنه سيستدعى طبيبه الخاص على الفور . ولن يغمض له جفن قبل أن يظفر والده بشىء من التقوية
واقتربت السيارة من الباب فبدأ وليم فى النزول . وبحنان استغربه من نفسه جداً ساعد والده على ارتقاء الدرجات القليلة المفضية الى البهو . حيث أخذ الساقى القبعتين والمعطفين . وعند السلم الكبير رأى والده يقف وينظر كمن يتطلع الى جبل عال قبل أن يتسلقه ، فقال وليم :
— سأحملك
— كلا . سأستطيع الصعود بعد لحظة
ولم يسمعه وليم . وفى موجة من الحب لم يشعر بها من قبل نحو مخلوق بشرى حمل أباه على ذراعيه . وأفزعته خفة الرجل بالرغم من طوله الفارع ، ثم صعد به السلم . ولما شعر الشيخ بذراعى ولده تحملانه استسلم وتنهد ثم

وضع رأسه فوق كتفه وأغمض عينيه



وما حدث لوليم فى الأسابيع التالية كان شيئاً غريباً جداً حتى فى نظره هو . فقد بدا له أنه وحيد فى هذا العالم مع أبيه . ومع ذلك فالقديس الذى يجود بأنفاسه شخص يتجاوز حدود أبوته . ولأول مرة منذ بدأ العمل لزم الدار لا يذهب الى مكتبه . وأدرك ببصيرة خاصة ظهرت لديه حينئذ أن هذه النفس الطاهرة لا تستريح فى هذه الفترة إلا للوحدة والعزلة . فأظهرخشونة كبيرة مع أمه ، وأصدر التنبيهات المشددة إلى كانداس وروث

— يجب ألا تسمحا لأمى بالاقتراب منه ، وأنتما مكلفتان بإبعادها عن البيت أكبر وقت ممكن وبأى مبرر يخطر ببالكما

وكان كذلك يخاشن الأطباء الأمريكيين فى قسوة وفظاظة ، ويصارحهم بأنهم غير أكفاء . ثم أبرق بنفسه إلى أعظم اخصائى انجليزى فى أمراض المناطق الحارة ، وهو السير هنرى لامفير ، يطلب حضوره فوراً . وتحت أمواج المحيط الأطلسى جعلت البرقيات تغدو وتروح بين ساعة وأخرى

وكان رد السير هنرى على استدعاء وليم الآمر رداً انجليزياً حاسماً :

— اتصلت بطبيبكم الخاص الدكتور بارترام . متأكد أن خدماتى فات وقتها . استهلكت الأنسجة نتيجة للجوع العضوى . الحقن قد تطيل حياته بعض الوقت

وكان جواب وليم جواباً أمريكياً آمراً :

— حدد أجرك . . .

ففقد السير هنرى صبره . وحملت الأسلاك عبر المحيط استياءه :

— ليس هناك ثمن يغرى بالحماقة وترك مرضاى فى مستشفاى مهملين . أنصحك بالاعتماد على أطبائكم المحليين

— أتنوى أن تترك أبى يموت ؟

— الموت والحياة بيد الله وحده . الأطباء يصنعون الممكن فقط، ووالدك شيخ أنشب فيه المرض القاتل أظفاره

— والدى سليل أسرة من المعمرين . ومقاومته الروحية عالية

— التشخيص واضح . احقنوه بالأمتين . غذوه باللبن والموز والفراولة

وخلاصة الكبد مع الراحة التامة واستشيروا بارترام وصلوا للرب. لا لزوم للرد

وشعر وليم أمام هذه الصلابة الانجليزية بحقده يتجدد على زملائه التلاميذ الانجليز المتعجرفين في مدرسة الصين. وأصدر أوامره لموظفيه بوقف الاستعدادات لاصدار الصحيفة الجديدة. وترك توكيلا مطلقاً لمديرى التحرير على ألا يتصلوا به في أى أمر بالمنزل إلا للضرورة القصوى

كان يعلم في قرارة نفسه أن السير هنرى على حق. وهـذا أسوأ ما في الموضوع بعد فكرة الموت نفسها

انه الآن يجلس يومياً بجانب فراش والده صامتاً في بيت يخيم عليه الصمت. وأمر الممرضات بالبقاء في الحجرة المجاورة فلا يدخلن إلا في مواعيد الحقن والطعام. وحرم دخول أى انسان إلا الدكتور بارترام. وكانت تطن في دماغه فكرة مؤلمة. إنها لحماقة فعلا من السير هنرى أن يحضر. ولـكن كان في استطاعته على كل حال أن يحدد الأجر كما طلب منه. فكل رجل في العالم له ثمن. وكان مستعداً أن يدفع الثمن بغير طائل لمجرد ارضاء ضميره. أو بالأحرى ارضاء غروره. ولـكنها إهانة انجليزية جديدة تضاف الى اهانات زملاء الدراسة المتعجرفين. ولسوف يلقى على هذه الجزر الصغيرة المتغطرسة درساً لن تنساه مستخدماً كل قوته في اثارة العداوة الشعبية ضدها. وسيعلم هؤلاء البحارة عاقبة السخرية من بلده الجميل الفتي أمريكا

لقد كان في صـدر شبابه يخجل من أن والده مرسل متواضع. ولـكنه الآن فخور بهذا المرسل الذى ارتفع من الحضيض لأنه والد وليم لين صاحب الملايين والقوة السياسية النامية والتأثير الاجتماعي والاقتصادى القوى

وطفرت الدموع إلى عيني وليم. فأمواله لم تستطع أن تؤجل ساعة واحدة منية أبيه. ومال إلى الأمام على فراش المريض ثم تناول يده. وهمس قائلا :

— أبى

— نعم يا وليم ؟

وكان صوته واضحاً جداً على شدة خفوته، وحول وجهه نحو ولده

— أنت تعلم أنى أفعل كل ما في وسعى لك ؟

— أجل يا بنى ... لا بأس ... لابد أن أموت كما تعلم

— ولـكنى لا أستطيع أن أدعك تموت

— هذا فضل منك عظيم يا وليم ... أقدره كثيراً

— أريدك أن تعيش لأننى محتاج إليك يا أبى

خرجت من فمه هذه الكلمات على غير قصد . وبغير تفكير. ولكنه أدرك على الفور أنها كلمات صادقة . إنه لم يتحدث بقلب مفتوح إلى أبيه من قبل . والآن يخيل إليه أنه لا يستطيع أن يفضى بذات نفسه إلى أحد غير أبيه . لا يستطيع أن يحدث غيره عن قلقه العظيم الذى يملأ جوانحه فى الليل والنهار

الآن وقد أنشأ هذه الآلة الناجحة الضخمة من الصحافة الناجحة التى تدر عليه أكداس الأموال سواء تولاها بنفسه أو غاب عنها . ماذا بعد ذلك ؟ الآن وقد أحرز القوة وطوع لنفسه ملايين الناس يتطلعون الى الصور التى يختارها ويطالعون الكلمات التى يكتبها ، أو التى يسمح بكتابتها. ماذا بعد ذلك؟

— أبى . إن تركتنى .. إن كنت حقيقة تعتقد ..

— بل اعلم يقيناً . الله أخبرنى

— إذن قل لى قبل أن تمضى . ماذا ينبغى أن أصنع ؟

— تصنع بماذا ؟

— بنفسى ؟

فرأى أباه يفتح عينيه السوداوين ويحاول حصر ذهنه بمجهود أخير ثم قال:

— يا وليم . يجب أن تصغى لصوت ضميرك . . . إنه هو صوت الرب منطلقاً من داخل صدرك . اذكر خالقك فى أيام شبابك . فكل ما تملك ، وكل مواهبك العظيمة يا ولدى وجهها لخدمة الرب. يا إلهى إنى أشكرك لأنك أتيت بى إلى أحضان ولدى قبل الأوان

وفى تلك الليلة ، بعد منتصف الليل بعشرين دقيقة خفتت أنفاس أبيه وهو نائم كما ينام الأطفال بغير حشرجة ، وبغير حركة



كان كليم واقفاً فى وسط السوق يدعو الناس بلهجة خطابية إلى منافع مشروعه حينما تقدمت منه هنرييتا وفى يدها قصاصة صفراء . وكان من المألوف عنده أن يتلقى من معاونيه المنبثين فى أطراف الريف برقيات بالمحصولات التى عقدوا صفقاتها . وكان نظام العمل يقتضى تسليمها إليه على الفور . لهذا قطع

الخطبة وتناول البرقية من يد هنرييتا . فتبين له على الفور أنها ليست من النوع الذى توقعه

كانت البرقية بتوقيع مسز لين . وموجهة الى زوجته

— والدك العزيز قضى نحبه ليلة أمس . الجنازة يوم الخميس . والدتك

وعلى الفور نسى كليم الجماهير وما اكتنف حفلة افتتاح هذه السوق من نجاح وسرور . وضايقه أن بناء السوق المرتجل ليس فيه مكان يسمح له أن يختلى بزوجته كى يرفه عنها . ورأى الدموع تنهمر ببطء من عينيها فقال لها :

— اذهبي فوراً إلى البيت . وسأرسل معك وونج ليوصلك الى القطار . وخذى معك نقوداً لتشترى ملابس سوداء من هناك . وسألحق بك غداً . وبرغمى أن أتركك تقضين الليلة فى القطار وحدك

— كم كنت أتمنى أن أراه مرة واحدة قبل أن يموت . كان يجب على وليم أن يرسل إلى . أو على الأقل كان ينبغى لروث . ولكن الذنب ذنبى . فأنا التى كان يجب عليها أن تذهب لتراه بمجرد وصوله . إلا أن كبريائى أبت على لأنهما ذهبا الى وليم وتجاهلانى . ومع هذا لم يخبرنى أحد أنه كان مريضاً

— كان من الواجب على ذويك أن يخبروك بأى شكل

— والآن أخشى ألا أراه . فلا أستبعد على وليم أن يمضى فى جميع الاجراءات كأن كل من عداه ليس لهم وجود

— عجلى على كل حال بالذهاب

ثم التفت إلى مساعده الصينى وونج وخاطبه بالصينية :

— اصحب من فضلك مسز ميلر إلى البيت وساعدها فى إعداد حقيبتها . ثم خذها إلى محطة سكة الحديد . واشتر لها تذكرة بولمان الى نيويورك بأول قطار . فوالدها المحترم توفى هناك

وأدرك الصينى الشاب مقدار الفجيعة ، بما فطر عليه الصينيون من توقير الآباء . وكان قد سمع فى الصين بسمعة الدكتور لين وكيف أنه يعتبر أطيب المرسلين قلباً . فقال :

— الله معك يا سيدتى . فيوم وفاة الأب أسوأ يوم فى حياة الانسان

— إنى لم أره طول تلك السنين يا وونج . والآن لن أراه

— وا أسفاه يا سيدتى . من أجلنا قطع نفسه عن ذويه وعن وطنه

وبعد أن اشترى لها التذكرة وسلة صغيرة من الفاكهة وأجلسها فى القطار ثم أصلح لها ستائر النافذة وقف على الرصيف وقبعته فوق صدره الى أن ابتعد القطار

ولم تكن هنرييتا دخلت قصر وليم الجديد . ولما لم تكن قد أرسلت برقية تنبيء بحضورها لم تجد سيارة فى انتظارها فركبت عربة أجرة وقفت بها عند باب القصر المبنى من الحجر الأشهب فى الشارع الخامس. ودقت الجرس ففتحه الخادم الانجليزى فقالت له :

— أنا شقيقة مستر لين الكبرى

فبدا على الرجل أنه دهش لأنه لم يكن يعلم بوجودها ثم قال :

— تفضلى بالدخول يا مولاتى

ثم أدخلها إلى حجرة واسعة واختفى دون أن يسمع لاقدامه صوت لسمك البسط المفروشة . وجلست هنرييتا فى مقعد عميق مكسو بالقطيفة المرجانية وقد أدهشتها فخامة الحجرة التى تناسقت فيها ظلال اللون الأشهب والمرجانى والأزرق الدخانى ما بين الستائر المخملية والبسط الفارسية . كانت حجرة مترفة ناعمة الذوق جميلة . انها تحاكى فى لون جمالها طراز جمال كانداس . وفى وسط الحجرة مائدة مستديرة ضخمة من خشب الموجنة تعلوها زهرية ضخمة من الخزف الصينى الأشهب المطعم بالفضة تتخلله عروق من اللون الرمادى الداكن وقد امتلأت بأزهار صفراء هادئة اللون

هذه اذن هى حياة وليم فى الوقت الحاضر . أو لعلها حياة كانداس. فربما كانت هى المسئولة عن ذلك الثراء الفاحش

ثم فكرت فى وليم وتذكرته كما كان فى بكين . فتى ضيق الصدر سليط اللسان فى البيت ومع الخدم . ولكن لماذا كان يبدو دائما غير سعيد ؟ إنه لم يكن يتحدث إليها إلا نادراً وعندما كانا معاً فى المدرسة الداخلية فى تشيفو لم يكلمها على الاطلاق تقريباً حتى حين يلتقى بها فى دهاليز المدرسة الضيقة . فاذا بعثت إليهما أمها برسالة واحدة باسمها كان عليها أن ترسلها إليه مع خادم صينى . ولم تحضر روث الصغيرة هذا العهد فى المدرسة لهذا لم تعرف وليم فى أسوأ صوره

وانفتح الباب ثم دخلت كانداس تجر ذيول ثوبها المنزلى الفضفاض وكان الوقت ظهراً تقريباً . ومع هذا لم تكن قد ارتدت ثيابها بعد . إلا أنها كانت تبدو غاية فى الأناقة والحلاوة فى هذا الثوب الوردى. وشعرها الأشقر المتموج

منساب على عنقها . أما هنرييتا فبدت منتعشة بعد الليلة التى قضتها فى القطار .
ومدت كانداس يدها فتلألأت الجواهر فى خواتمها

— تأتين من غير أن تخبرينا بقدومك أيتها الخبيثة !

— خيل إلىّ أنكم ستتوقعون حضورى على الفور

ثم استسلمت لقبلتها المعطرة وجلست ثانيـة . وعندئذ تنهدت كانداس وتصاعدت الدموع إلى عينيها البنفسجيتين الرقيقتى النظرة وقالت :

— وليم يرفض أن يتعزى . فهو جالس باستمرار هناك بجوار والده ليلا ونهاراً . لا يأكل ولا يشرب ولا يستريح . أما أمك فنائمة لأنها متعبة جداً . وقد ذهبت روث إلى بيتها لتمكث بعض الوقت مع أطفالها . فلا لزوم لها هنا

— سيأتى كليم غداً

— إنه كرم منه أن يجشم نفسه الحضور

— ليس كرماً منه . فهو سيحضر من أجلى أنا . والآن أريد أن أذهب لأرى أبى يا كانداس . لأنى لم أره من قبل كما تعلمين

— لست أدرى إن كان وليم ...

— وليم يعرفنى جيداً وسوف لا يلومك

ونهضت فنهضت كانداس أيضاً ثم قادت هنرييتا الى حجرات ودهاليز وأخيراً وصلت إلى أبواب ضخمة من خشب القسطل المصقول ففتحت فرجة صغيرة فى الباب . ومن فوق كتفيها رأت هنرييتا مكتبة واسعة فى وسطهامنصة عليها نعش وبجواره جلس وليم فى مقعد جلدى بحيث يرى وجه أبيه . ومن الجهة الأخرى زهرية حافلة بأزهار الزنبق ، وأشعة الشمس تنساب فوق هذا المشهد من النوافذ الجنوبية الضخمة

وعندئذ أزاحت هنرييتا كانداس بلطف ودفعت الباب ثم دخلت وقالت:

— ها قد أتيت يا وليم

فنظر اليها وليم مأخوذاً ثم نهض وقال بصوته العميق الأجش :

— أتيت مبكرة يا هنرييتا

— أتيت بمجرد وصول برقية والدتى

وكانت كانداس قد أغلقت الباب ومضت . فتقدمت هنرييتا من النعش وأطلت على وجه أبيها فاذا به وكأنه تمثال من الثلج الأبيض . ويداه المربلتان

معقودتان فوق صدره وهما كوجهه فى بياض الثلج . ثم التفتت إلى وليم فنظرت اليه ملياً وقالت له :

— يسرنى أنك لم تنبذه

— إن كل ما يمكن عمله قد عمل

— إنه شديد الهزال . . .

— لأنه كان مريضاً منذ عامين . ولم تفطن أمى إلى ذلك . وهو أيضاً لم يكن يشكو إلى أن أكل الداء الوبيل أمعاءه وانطفأ كل أمل

ولم يبك أحدهما . ولم يتوقع من الآخر أن يبكى . ثم قال وليم :

— يسرنى أنه لم يمت هناك

— ربما كان يفضل أن يموت هناك . فقد كان يحب الصينيين كثيراً

— لقد أضاع حياته من أجلهم

وشعرت بالرغم من اتزان صوته أنه حزين حزناً عميقاً . فقالت له :

— إنه لما يعزيك أنه جاء هنا ليموت

— إنه أكثر من عزاء . إنها رسالته الأخيرة

ولم يشعر بدافع ليفضى اليها بكلمات والده الأخيرة . ولا كيف أنه ـ بعد أن أعرب عن رغبته فى أن يموت ويدفن فى بكين ـ غير رأيه فجأة وقال لزوجته ذات ليلة :

— يجب أن أرى وليم . يجب أن أرى ابنى . عندى ما أقوله له

وعندما سألته أمه بعد أن مات أبوه ماذا قال له ، لم يشأ أن يشركها فى سرهما المشترك . ذلك السر الذى قطع والده آلاف الأميال ليقوله له فى كلمات قليلة . ثم قالت هنرييتا :

— وليم . أمتأكد أنت أنك لست مريضاً ؟

— طبعاً متأكد . إنى متعب بطبيعة الحال. ولكنى لا أنوى أن أستريح قبل الجنازة غداً . وأظن أنه ينبغى أن تذهبى لترى والدتى

— قالت لى كانداس إنها نائمة

— اذن آن لها أن تستيقظ

ثم قادها إلى خارج الحجرة . وفى البهو ضغط زراً فظهر خادم انجليزى

— خذ شقيقتى الى حجرة والدتى

توجهت هنرييتا بنفسها الى المحطة لتستقبل كليم ، الذى وصل فى آخر لحظة قبل تشييع الجنازة . وهم سائق وليم أن يحمل حقيبته فقاومه قائلا :

— انى متعود حمل حقيبتى . شكراً لك

ثم وجه الى الرجل ابتسامة مشرقة ونسى أمره بعد ذلك

— كيف أنت يا هنرييتا ؟ ما أطيب أن يراك المرء ثانية

— أسرع فالوقت ضيق ...

وأقلتهما السيارة بسرعة الى الكنيسة الضخمة فى الشارع الخامس. وعند بابها استقبلهما حاجب قادهما إلى مكان محجوز محاط بالسواد مخصص لأسرة الفقيد . ولدهشتها وجدت مقعد كليم ومقعدها مجاورين لمقعد وليم وروجر كاميرون . وكانت هـذه أول مرة يرى فيها كليم وليم بعد مشاجرة بكين . فوجده على حاله من الصرامة والوجوم . فنسى الميت ولم يبق فى ذهنه سوى خاطر واحد : وليم إنسان شقى . فحزنه على والده لا يمكن أن يكون قد حفر بسرعة كل هذه الغضون . ولكن لماذا يشقى وليم ؟ إن الشقاء شىء غير الحزن . إنه نوع من القبح يتغلغل بجذوره الى أعماق النفس

وفى هذه اللحظة ارتفع صوت القسيس عميقاً واضحاً مصقولا

— الرب أعطى والرب أخذ

فاستجمع كليم أفكاره وحاول ألا يهز قدمه على عادته العصبية. وكان الجو فى الكنيسة حاراً والأزهار الكثيرة تثقله بعطرها . ووجه نظره الى جهة الميت فتراءى له كتمثال من الرخام الأبيض مجلل بالأزهار . ولم يرى فيه ذلك الرجل الطيب الودود البشوش الذى عرفه فى بكين ، وخطر له أن وليم أمر بتجميل وجه والده بالمساحيق ليكون منظره مناسباً . وشعر فى أعماقه أن الدكتور لين لا يمكن أن يرضى عن هذه المظهريات كلها . وخيل إليه أن الميت يتململ فى مكانه ويهم أن ينهض لينصرف من هذا الجو المزخرف

وأحس بهنرييتا تغمزه فى ذراعه لأنه اندفع مع تصوراته فبدأ هو أيضاً يتململ فى مكانه ، فاعتدل ووجه انتباهه الى القس الذى كان يلقى كلمة فى تأبين الفقيد . ثم اختلس نظرة الى وجه وليم . ثم الى وجه أرميا وروث ومسزلين ولم يكن قد رآهم من قبل . فهم من ذلك الطراز الذى لم يكن يعرفه أو يميل لمعرفته . وارتد بصره الى هنرييتا فلمح الشبه الواضح بأخيها . ثم فكر فى

المعجزة التي جعلت هذه المرأة تولد وتنشأ بين هؤلاء ثم لا تكون مثلهم فى شىء . فتنفر منهم وترغب فى الزواج منه . إنه يحبها كما يحب عمله وأحلامه . ولـكنه لم يفكر فيها قط على أنها جزء منه أو شىء تابع له . لأنه لم يعتبر نفسه شيئاً أبداً

وذكر بامتنان فى هذه اللحظة أن هنرييتا لم تفاتحه أبداً فى مسألة إنجاب الأطفال . لقد شهد بعينيه أطفالا كثيرين يموتون جوعاً . ورأى فى رحلته على قدميه من بكين الى شاطىء البحر مئات الأطفال القذرين يمرحون ويلعبون أو يبكون جوعاً . ففى العالم على كل حال أكثر مما ينبغى من الأطفال

وما من مرة خطر الأطفال على باله إلا تذكر شقيقتيه كما التصقت صورتهما بذهنه وقد طارت رأساهما عن جسديهما . وما أحوجه الى حريته الكاملة كى يستطيع أداء رسالته التي ولد لها . كلا إنه لا يريد أطفالا

وثاب الى نفسه حينما وضعت هنرييتا يدها على ذراعه فاذا صلاة الجنازة قد انتهت . فشعر بالخجل من نفسه لأنه لم يستطع تركيز ذهنه . وتبعها الى حيث وقفت الأسرة لتستقل السيارات الى المقبرة

وبعد مراسم الدفن عاد الجميع الى بيت وليم . وأسرعت كانداس تشرف على إعداد مائدة الشاى . وفيما هى تعبر قاعة المـائدة التقت بزوج هنرييتا . ووجدته لطيفاً يذكرها فى شكله وحركته بالطيور ، فعجبت فى نفسها لماذا ثار غضب وليم حينما علم بزواج هنرييتا من كليم ، فقالت له بصوتها العذب :

— ادخل يا كليم ...

فأقبل عليها ويداه تعبثان فى جيوبه بشىء له صليل لعله مجموعة من المفاتيح أو من النقود المعدنية . كلا بل هى زجاجة حبوب صغيرة أخرجها ثم سألها :

— ألديك هنا ماء ؟ فهذه الجنازة أثارت أعصاب معدتى

فقدمت إليه المـاء . فشرب دواءه ثم راح يقص عليها كيف التقى بوليم فى بكين

— هل كان يعرفك من قبل ؟

— كلا . ولـكن كان يعرف من أنا . كل من فى بكين كانوا يعرفوننى

— ماذا تعنى ؟

— كنت مشهوراً لأننى ابن المبشر الوحيد المتسول . أما آل لين فهم

كرام الناس . أمراء الكنيسة . وكان الدكتور لين أجود الناس فى صدقاته على أبى وعلينا يا مسز وليم

— بل ادعنى كاندى . . .

— كاندى ؟ اسم يليق بك . معناه الحلوى . لقد كان والدى يا كاندى رجلا جاهلا . مثلى أنا لم يذهب إلى مدارس . ولكن مع فارق واحد بيننا . أنا كنت أعنى لو تعلمت . أما هو فلم يكن يرى للتعليم لزوماً ، لأن الرب يدبر كل شىء حتى الطعام بغير عمل وحتى الفهم بغير تعليم

— أراك رجلا سعيداً . وأحسب هنرييتا مسئولة عن ذلك . فهى تعبدك فيما أعتقد . وحين تتحدث عنك يطفح وجهها بشراً كمن تتحدث عن طفلها الوحيد

— ليس فى العالم كله نظير لهنرييتا . ولست أدرى ماذا عساى كنت صانعاً لولاها . إنها أساس حياتى . ولم تخذلنى فى شىء قط . فليباركها الرب كى تعيننى فى مسألة الطعام

— الطعام ؟ وماذا تنوى أن تصنع بخصوص الطعام يا كليم ؟

— لا شىء . أريد فقط أن أطعم العالم

— أتقول تطعم العالم ؟

— نعم العالم . هذه الكرة الأرضية التى نقف عليها

— صه !

ووضعت يدها الجميلة على ذراع كليم وأصاخا السمع . ثم سحبت يدها ودخل وليم الحجرة فالتفتت اليه قائلة :

— كنا نتحدث يا وليم فى انتظار الجميع . فكل شىء على اهبة الاستعداد

— لست أدرى أين ذهبوا

ثم جلس فى مقعد بجوار النافذة

— كنت أتحدث مع كليم عن إطعام العالم

— أنت إذن تشتغل بصناعة التغذية ؟

— أجل . وقد فتحت من يومين سوقاً جديدة كبيرة فى دايتن

— وما علاقة هذا بالعالم ؟

— مجرد بداية . . .

— أنت إذن تفكر فى إنشاء احتكار عالمى للغذاء ؟

ولأول مرة بدا على وليم الاهتمام بالموضوع

— كلا وحق الجحيم ! إنى لا أهتم بالاحتكارات بل أحاربها . وكل ما أهتم به هو إطعام الناس . ومن لم يستطع منهم أن يدفع الثمن أعطيتــه الطعام بالمجان

— ماذا تقول ؟ تطعم الناس بغير مقابل ؟

— طبعاً ماداموا جائعين

— ولـكنك لا يمكن أن تستمر فى السوق على هذا الأساس

— هذا ما يدهشنى ، وما عجزت عن فهمه . فبالرغم من جهودى فى محاربة الربح وتجنبه وجدت نفسى فى الوقت الحاضر مليونيراً

وانطلقت كانداس تضحك . فرمقها وليم بنظرة قاسية وقال :

— ما الذى يضحكك يا كانداس ؟

فغطت وجهها بيديها لتخفى الضحك . لأن ما أضحكها هو منظر وليم وهو يسمع كلمات كليم . بيد أنها لم تجسر أن تقول له ذلك . فقالت :

— شىء مضحك جداً أن يثرى إنسان لأنه يهب الطعام بغير مقابل

فهز وليم كتفيه ثم نهض ليدعو الأسرة إلى المائدة . فلما جلس الجميع رفع رأسه وقال بصوت ثابت وقور رسمى :

— لم تجر عادتنا فى هذا البيت على الصلاة قبل الطعام . وربما كان ذلك إهمالا منا . ولـكن ابتداء من اليوم ، وتذكاراً لوالدى ، سأقوم بصلاة الشكر على المائدة فى بيتى

ثم سقط نظره على وجه كانداس فرأى فيه الحب والعطف والرثاء تتحول إلى دموع ، فأحنى رأسه سريعاً ليتحاشى هذا المنظر . ومدت اليه أمه يدها شاكرة فتجاهل تلك اليد ثم بدأ مهمته بصوت منخفض عميق :

— يا أبانا الذى فى السماء . من أجل الطعام الذى أعطيتنا تقبل شكرنا . بارك هذا الطعام وباركنا لنستحق ملـكوتك . آمين

وكانت هذه الصلاة بحذافيرها هى التى تعود والده أن يلقيها قبل كل وجبة طول سنوات حياته التى قضاها مرسلا

الحب الضائع

أثناء الحرب العالمية الأولى وما تلاها من سنوات الازدهار نمت أعمال وليم وثروته نمواً هائلا . فصحفه هى أوسع الصحف انتشاراً فى أمريكا كلها . حتى أنه أصدر طبعات أجنبية كثيرة . وهجر مكاتبه القديمة وهو الآن يملك ناطحة سحاب هائلة على النهر الشرقى

ومع هـذا كله لم يكن قانعاً ولم يكن راضياً . فهو يريد أن يرى وطنه أعظم الأوطان فى العالم . لا بالكلام والخيال بل بالعمل والفعال . وكم سره أن يرى بنفسه فى رحلته حول العالم السفن الأمريكية تمخر جميع البحار . والصحف الأمريكية ولا سيما صحفه منتشرة فى جميع البلدان . والمؤسسات الأمريكية فى شوارع المال والتجارة بجميع العواصم . والكنائس والمدارس الأمريكية فى جميع القرى فوق ظهر البسيطة . إن أمريكا وطنه ولهذا يريد أن تكون أعظم الأوطان

كان هذا هو المحرك الذى يبعث الحياة فى كل حياته . ولهذا الغرض كان يتبرع بالمنح السخية للارساليات الأجنبية تمجيداً لذكرى والده . كما أسس كلية فى الصين سميت جامعة لين التذكارية . مع أنه رفض رفضاً قاطعاً أن يقابل شخصياً الرسلين الذين يدفع مرتباتهم . ووكل هذه الأمور لمؤسسة خاصة هى مؤسسة لين الخيرية

وعلى كثرة ترحاله لم تطأ قدماه أرض الصين . مع أنه كثيراً ما كان يحلم بشوارع بكين حين يلم به التعب فى بعض الليالى . بيد أنه كان ينفض تلك الأحلام البلهاء من ذهنه ويعود الى مثله العليا المحسوسة

أما كانداس فلم يكن لها مكان فى هذا البناء الضخم.وقد أصبحت بالتدريج عديمة الاكتراث للمسئوليات الفظيعة التى أخذها على عاتقه ، بل حدث ذات يوم أن تشاجرت مع أمه شجاراً عنيفاً . وعلى شدة اجتهاده فى معرفة سبب

هذا الخلاف لم يصل الى معرفة التفاصيل . وكل ما استطاع أن يعلم إجمالا أنه شخصياً كان مدار ذلك الخلاف

وزادت كانداس فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الأولى غرابة فى السلوك وإمعاناً فى عدم المبالاة . وبدأ يعترف بينه وبين نفسه أن كانداس لم تعن شيئاً كثيراً بالنسبة إليه فى يوم من الأيام . وقد انقضت سنوات منذ انقطعت حاجته إلى روجر كاميرون . وفى العام الماضى عندما ماتت والدتها قال روجر العجوز لوليم

— أريد أن أبيع أسهمى فى جرائدك

— ان الأسهم فى صعود مستمر

— ولهذا السبب أريد أن أبيعها

ولم يفهم وليم مراده بيد أنه لم يجب لأنه شعر بشىء من المضاضة . وثارت كبرياؤه فكتب مذكرة لوكيل أعماله يطلب منه أن يشترى من البورصة جميع أسهم جرائده كى يغدو المالك الوحيد بغير منازع أو شريك . وذات يوم من أيام شهر أكتوبر جلس يفكر فى هـذه الأمور فى مكتبه الفسيح فوق قمة ناطحة سحابه الخاصة . والمكتب يفضى الى جناح بديع تعود أن ينام فيه حين يمكث فى مكتبه الى ساعة متأخرة من الليل

جلس وليم أمام مكتبه الدائرى الضخم وقد وضع قبضتيه فوق المكتب واستسلم للتفكير . لقد حصل على كل ما اشتهاه فى حياته ما عدا الصداقة والانس. فهو بعيد بذات نفسه عن كل مخلوق بشرى . حتى عن كانداس وأولاده. ومن باب أولى عن أمه وشقيقته

انه إنسان مستوحش متوحد ليس يقربه أحد رجلا كان أو امرأة. وأرميا نفسه قد اطمأن إلى وظيفته فى إدارة الصحف اطمئنان زوج الأخت الخلى البال الذى يعلم أنه لايمكن أن يفصل لما يؤدى إليه فصله من فضيحة وهزة فى الادارة . يضاف إلى هـذا أن أرميا لديه حاسة فنية وخيال واسع يضفى على الصحف روح الفكاهة التى لا يمكن لأحد أن يمدها بها . فوليم لا يمكنه ذلك لأنه لا يعرف كيف تكون الفكاهة . ورجال التحرير لا يمكنهم ذلك لشدة خوفهم منه ، والفكاهة لايمكن أن تعيش مع الخوف جنباً إلى جنب . وكان فى استطاعة أرميا أن يكون صديقاً له بيد أنه لا يريد. ووليم يعلل ذلك الاعراض

من جانب أرميا بأنه لا يقدر أهداف وليم قدرها . ثم إن آل كاميرون جميعاً سطحيون . لا يبالون بشىء مبالاة جدية . فهذا روجر العجوز الأرمل قد أصبح شيخاً مرحاً لا يهتم بشىء أبداً . وكانداس أصبحت تهمل زينتها وقوامها وتضحك من كل كلة يقولها شقيقها أرميا . ولم ينفع معها التنبيه الى مقتضيات الوقار

ان أشبه الناس به هى روث فى وقارها . ولكنه يتساءل أحياناً : ألا تضحك حينما تكون بعيداً عن مرمى سمعه ؟

انه على الجملة انسان وحيد ليس له أحد . وأبناؤه لا يثيرون اهتمامه . إنه وحيد كالملوك . وحيد لأنه رجل كبير

أجل إن العظمة تفرض عليه الوحدة . فهو كالملك لا يستطيع أن يمد يده الى إنسان إلا ويساء فهم إشارته . إن الصداقة العادية شىء ممتنع عليه . وإنه لفى حيرة من أمره . هل يمكن أن تكون فى العالم امرأة تشعره بالأنس والصداقة ؟ تكون معه بغير فارق ؟

وكأنما أراد أن يستوثق من جواب هذا السؤال ، فخرج من مكتبه قبل موعده ودخل سيارته التى كانت تنتظر أمام الباب . فدهش السائق وبدت على وجهه أمارات السرور . ولا شك أن الرجل كانت له أسرة ولهذا سره أن يعود إليها مبكراً . وذلك شىء لايعلم وليم عنه شيئاً . ولم يحاول أن يسأل وإنما السائق عنده وظيفة لا شخص . فأشار برأسه للسائق أن يتوجه به الى قصره

ووجدها جالسة على مقعد طويل بجانب بركة الاستحمام . فنهضت لاستقباله وذهبت فارتدت ثوباً مناسباً وعادت فجلست بجواره . ثم قالت له وقد مالت فوقه تقبله :

— لقد بدأ الصلع يدب الى رأسك يا وليم

وأدركت بعد فوات الأوان أنها أخطأت . لأنه لم يجب وقطب جبينه ، فبادرت تقول :

— ولكنه غير ظاهر

— لو لم يكن ظاهراً لما رأيته

— ليكن لك ما تريد

ووقفت منه ملاحظتها العابرة وقع الصاعقة . لأنها ذكرته بأنه اكتهل وأصبح فى منتصف العمر . فان كان عازماً على أن يعتصر من الحياة شيئاً فهذا هو الأوان أو يفوت الأوان . وكأنما انبثق نهر جارف من المشاعر فى صدره فجأة

ليطلقن كانداس ! إن هـذا ضرورى إن كان مصمماً على التمتع بالأنس والمؤاخاة الروحية والذهنية قبل أن يموت . ولا شك أنه سيجد فى مكان ما من هذا العالم الواسع المرأة التى يريدها . هذا هو الأوان أو يفوت الأوان !

واضطجع فى الشمس الدافئة واسترخت عضلاته . لقد أزيح عن كاهله عبء ثقيل بهذا القرار الحاسم . وكأنه خرج من نفق مظلم الى ضوء النهار . وأغمض عينيه ثم تناول من يد كانداس كأس الشراب المثلج الذى قدمته له وراح يرشفه بارتياح عظيم . وما أن فرغ من ارتشافه حتى نهض ليعود الى مكتبه كى يتحاشى النظر إليها أو الاصغاء الى حديثها



وبعد أسابيع تلقت هنرييتا من أمها على غير انتظار خطاباً يحمل طابع بريد نيويورك . ومن أول سطر عرفت نبأ الكارثة :

— أحمد الله يا عزيزتى أن أباك العزيز فارق هذا العالم قبل أن يتحطم قلبه بتلك المصيبة . فما كان هـذا العزيز ليحتمل وقوع شىء من هذا القبيل فى أسرتنا المحترمة المتدينة . وأؤكد لك أنى بكيت طويلا ، وتضرعت إليه ، مع أنى لم أكن معها على وئام . بيد أن وليم ظل على عناده ولم يجعل لتوسلاتى إلا دبر أذنه . إنه ابنى . وإنى لا تمثله الآن فتى صغيراً أحمله فوق صدرى . ولكنى حين أنظر إليه الآن لا أكاد أعرفه . رباه ماذا صنعنا كى تحيق بنا هذه اللعنة ؟

وحملت هنرييتا الخطاب متجهة نحو كليم وهى لم تتبين بعد نوع الكارثة . فلما قرأت الجملة التالية أطلقت صرخة حادة ، ففزع كليم وسألها :

— ماذا جرى ؟

ولم يكن من عادة هنرييتا أن ترفع صوتها أبداً أو تصرخ لأى سبب . أما الآن فهى تحملق بعينيها الرماديتين فى الورقة التى فى يدها وكأنها ترى عفريتاً من الجن . كان لون عينيها كلون عينى وليم . ولكنهما لم تكونا معدنيتى النظرة . كانت لهما أعماق وليس مجرد سطح يشع وتنعكس عليه الاشعاعات

— وليم بسبيل تطليق كانداس !

وخرجت الكلمات من بين أسنانهـا فى رعب شديد . وتلقى هو هذه الكلمات بمثل ذلك الرعب ووقف كل منهمـا يحملق فى وجه الآخر . ثم سألها بحدة :

— لا يجوز لرجل أن يطلق امرأته إلا لعلة الزنى . فما فعلت كانداس ؟

— إنها لا يمكن أن تكون فعلت شيئاً . وماما لم تذكر ...

ثم جرت عيناها بين سطور الخطاب وهتفت :

— بل هاهى تقول ان السبب كون كانداس لاتعجبه . وهى كما كانت دائماً . وليس هذا عذراً طبعاً لوليم . ولـكنك تعرفه لا يفكر حتى فى التماس عذر لنفسه يبرر به عمله . فهو يفعل ما يشاء ولا يبدى لذلك سبباً . وتعزو والدتى هذا السلوك من جانبه الى نزوة . فقد سلبت لبه امرأة انجليزية التقى بهـا فى بعض رحلاته الى انجلترا

ولو ان فى عينى هنرييتا دموعاً لذرفت تلك الدموع . وكل ما هناك ان قلبها ازداد قساوة على وليم ونفوراً منه ثم كورت الخطاب فى قبضة يدها وألقت به فى سلة المهملات . انها لم تحب كانداس فى يوم من الأيام ولـكنها اليوم تكاد تحبها . أجل أنها قد انفصلت منذ زمن بعيد عن إيمان والدها القوى بيد ان لباب الدين الذى يترسب فى السلوك والطباع والأخلاق والتفكير كان حياً فى قلبها ، وقد نماه وغذاه ما فى حياة كليم من إيثار ومناهضة للأنانية واخلاص حماسى لمبدئه الفريد . ثم ان آل كاميرون من كرام الناس . وهم فى جوهرهم يشبهون أباها فى طيبة القلب ومازالت لمقتضيات الاحتشام والتورع قيمتها على كل حال سواء كان المرء من المصلين الصائمين أو من غير المصلين الصائمين . وليس لرجل يستحق الانتساب الى الجنس البشرى المتحضر أن يطلق امرأته بغير علة . بل ان كرام الرجال حقاً من لا يطلقون زوجاتهم لأى علة على الاطلاق . الا ان وليم بعمله هذا قد أخرج نفسه من صفوف الفضلاء

ورفعت وجهها الى كليم وقالت له فى عزم :

— لن أرى وجه وليم بعد اليوم ! إنه ليس أخى

فنهض كليم واتجه الى مقعدها ثم ركع بجواره . فألقت برأسها على كتفيه الناحلين وطوقها بذراعيه ليهدئها . فقالت بصوت متحشرج :

— آه يا كليم . إنى لسعيدة لأنك طيب وفاضل

— ربما كنا مخطئين ياهنرييتا لابتعادنا عن الدين . فالانسان ينمو بنعمة الرب

— انك حسن جداً كما أنت . طيب بفطرتك

— ربما كنت مخطئا فى اختيار طريق . ربما كان تفكيرى فى الطعام خطلا . فليس بالخبز وحده يحيا الانسان كما تعلمين

— دع عنك هذا . فالمسيح نفسه أطعم الطعام لجوع الجياع . والآن أريد أن أكتب خطاباً الى عزيزتى كانداس



وتلقت كانداس وهى فى بيت أبيها ذلك الخطاب :

« عزيزتى كانداس

« لقد عدنا فوراً من المكسيك فوجدت خطاباً من والدتى . وأشعر ان كل كلمات العزاء والترفيه لاتكفى . ولكن اعلمى انى أشعر بالخزى لأن وليم أخى . وما من أحد فى بيتنا استطاع أن يفهمه . ووالدتى بحمد الله مسرورة لأن والدى مات قبل أن يشهد هذا العار . وأنا أشاركها الرأى . اللهم إلا إذا كان وجود أبى ربما أجدى فى تحويل وليم عن هذه الهاوية

لا أظن ان لى فى الأمر حيلة . ولم أعد أصلى كما كنت أصلى وأنا طفلة . ولو انى اعتقدت اليوم ان الصلاة تجدى لبادرت بالركوع . كم أشعر اليوم انى قريبة منك . وأولادك ؟ لابد انهم يشعرون بالمقت الشديد لأبيهم . فهو شرير مع انك لم تستوجبى شيئاً من هذا كله . ولا أستطيع أن أتصور عذراً أو سبباً . فأنت آية فى الجمال وفى اللطف ودماثة الخلق ولين الجانب . كم أتمنى أن يعذب الله وليم لما فعل »

قرأت كانداس الخطاب ثم ابتسمت ابتسامة حزينة . ولم يفتها ما فى الأمر من فكاهة . فهى لم ترتبط قط بهنرييتا إلا اليوم ، وبسبب انفصام رباط القرابة بينهما !

ورفعت نظرها الى الساعة الفضية الصغيرة الموضوعة على مائدة زينتها . انها الآن ليست زوجة وليم . لأن موعد صدور الحكم ساعة الظهر . وقد مضى على تلك الساعة ست دقائق . كانت تعد الزمن دقيقة دقيقة . ثم غفلت عن ذلك



« ووضعت كانداس رأسها بين يديها وانحنت على ظهر المقعد واغمضت عينيها »

برهة تم فيها كل شيء . وتركت الخطاب يسقط من يدها على الأرض ثم وضعت رأسها على ظهر المقعد وأغمضت عينيها

لم ترفع صوتها بكلمة احتجاج وبذلك صانت كبرياءها . وأخوها أرميا ترك العمل مع وليم الى الأبد كما قال . حتى إذا التقى بزوجته روث أقنعته بالعودة . ان روث طبعاً لا تدافع عن وليم فهي أكرم وأرق من هذا . ولكنها أيضاً لاتلومه . لأنه شرح لها ذات نفسه . وحاولت أن تنقل إيضاحه الى أرمياوالى كانداس بصوتها العذب الضئيل

— لقد كان وليم على الدوام مختلفاً عن جميع النـاس . كان يشعر دائما بالوحدة ...

فقال أرميا محتداً :

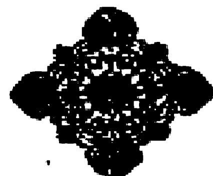
— الذنب ذنبه ان كان يشعر بالوحدة . فهو يصر على أن يرتفع بنفسه فوق الجميع . أجل ياروث انه يترفع علينا جميعاً

— إنه يبدو كذلك فعلا يا أرميا . ولكنه في دخيلة نفسه انسان ضائع ضال تائه

— أجل هو فعلا ضائع تائه . انه بحاجة الى شيء لم يظفر به وليس يدرى ما هو . وما من أحد منا يستطيع أن يمنحه اياه

وعندئذ قالت كانداس :

— إن كان الأمر كذلك ، وكانت «امروى» تستطيع أن تمنحه السعادة فمن دواعي سرورى أن تفعل وأتمنى له معها حظاً موفوراً



زواج جديد

مع سنوات الأزمة العالمية بدأت الضائقة والجوع يزحفان إلى أمريكا . وإلى المدن بوجه خاص . ففكر كليم فى وسيلة يطعم بها هذا الشعب الجائع . وصارح بامب بما فى ذهنه :

— إن هذه الأزمة ستشتد وتغدو أشد أزمة عرفها تاريخ العالم . ويجب أن نستعد لإطعام الناس على نحو لم نفعله من قبل . أريد أن أفتح مطاعم عامة يا بامب . ولا يكفى فى الوقت الحاضر أن نبيع للناس الطعام رخيصاً . بل يجب أن نكون مستعدين لاعطائهم إياه بغير مقابل مطهواً معداً للتناول . حتى لا يأخذوه ويبيعوه

— ولكننا لا نستطيع أن نطعم الأمة كلها يا كليم

— أنا لا أتكلم عن الأمة وإنما أتكلم عن الجائعين . أريد أن أنشىء مطاعم فى المدن الكبرى فى أسرع وقت . وستتولى أسواقنا الموجودة فى جميع المدن تقديم المواد الأولية لهذه المطاعم . وكل من يقدر على الدفع سنقبل منه ما يدفعه طبعاً . وحتى الآن يستطيع معظم الناس أن يدفعوا ثمن الطعام الرخيص . ولكننى أفكر فى يناير وفبراير القادمين ، وفى الشتاء الذى بعد القادم حين تصبح الضائقة على أشدها

وأدرك بامب أن كليم قد صمم على رأيه ولن يرجع عنه . وكان من المستحيل طبعاً تنفيذ المشروع فى جميع مدن أمريكا دفعة واحدة . ولكن بدىء فى تنفيذه على كل حال فى وقت قصير جداً . واشترى كليم طائرة صغيرة تعلمت هنريتا كيف تقودها كارهة ، لكى تحول بين كليم وقيادتها . وهو إنسان لا تؤتمن أعصابه على الآلات لأنه يطالبها بمعجزات لا تقدر عليها . ومن العجيب أنها اكتشفت فى نفسها طيارة ماهرة . أما كليم فلم يدهش لذلك لاعتقاده أنها قادرة على عمل أى شىء . ثم شرعا يطيران من مدينة إلى مدينة

ويفتحان فيها المطاعم من شاطىء المحيط الأطلسي إلى شاطىء المحيط الهادى

وكان عدد المطاعم التي أسسها في أول سـنة اثنى عشر مطعما انتخب لها مديرين صينيين وخدماً صينيين . وعلل هذا الاختيار لهنرييتا بقوله :

— الصينيون وحدهم يعرفون كيف يصنعون أحسن الطعام من أرخص المواد . فقد تخصصوا في ذلك منذ آلاف السنين بحكم كثرة النسل

ولما كان يعرف قيمة الروح في العمل فقد دعا معاونيه إلى مؤتمر في شيكاغو وراح يحاضرهم في كيفية مقاومة المجاعة . وقدم اليهم قائمة بمائة صنف من أصناف الطعام يمكن عملها من المواد الرخيصة التي تفيض عن حاجة الأسواق . ووضع لهم القواعد التي كان يجب في رأى الاقتصاديين أن تقضى عليه فكانت سبباً في ازدياد ثروته ضخامة

— إذا أراد أى إنسان أن يتناول وجبة مجانية في أى مطعم من مطاعمكم يسروا له ذلك . وليس لهم بطبيعة الحال أن يطلبوا سلطة روسية وعصيدة الفراولة بالقشدة . ولـكن في وسعهم أن يحصلوا على خضر باللحم وخبز وأرز وتفاح مطبوخ . والمهم أنه يجب ألا يعلم أحد من رواد المطعم إن كان هذا الشخص دفع عن طعامه أو لم يدفع . فالايصال يقدم إلى الجميع على السواء . ثم يتجه الشخص إلى الصراف ويسر اليه أنه لا يملك نقوداً

فسأل المستر ليم مدير مطعم سان فرنسسكو :

— وكم مرة يسمح للشخص بطعام مجانى ؟

— هذا سؤال لا يجب أن نسأله . فكل جائع يجب أن يأ كل . وفى الوقت نفسه سنقدم أطعمة فاخرة متقنة جداً بحيث يقبل من معهم مال على شرائها . ويجب أن تبدو مطاعمنا في أبهى زينة بحيث تهفو نفوس الناس إلى دخولها ولا تكون كالمزابل المنتنة

وتبادل المعاونون الصينيون الابتسامات فرتباتهم مضمونة . وهذا الأمريكى المجنون يبدو مسلياً جداً . ومادام قد لجأ إلى شرفهم فسيبذلون قصارى جهدهم في تقليل النفقات مع إتقان العمل . وتقبل كليم وعودهم بحسن ثقة

وهكذا رتب كليم أسواقه ومطاعمه في سلسلة مترامية بين أرجاء البلاد . ولم يكن يتوقع الـكمال في النظام . وقد اكتشف في مطعمين التلاعب والاختلاس ففصل المديرين وعين غيرهما في الحال وغير مجموعة الخدم والطهاة

التى كانت تتواطأ مع المديرين

وانتشرت فكرة مطاعم الأخوة الانسانية واشتهرت بغير إعلان فأنقذت آلاف الناس من الجوع من غير أن يدرى إنسان . واتضح من إحصاء تقريبى أن ثلاثة فى المائة ممن لم يدفعوا ثمن طعامهم كانوا قادرين على دفعه . ولكن كان يقابل ذلك مبالغ إضافية يدفعها القادرون لسرورهم من الطعام . وكان كليم بارعاً فى تحصيل هذه المبالغ الاضافية . ففى قاع قائمة الطعام كتب بحروف ظاهرة هذه العبارة :

— أثماننا أقل من أن تكفل ربحاً . فان كنت تشعر أنك أخذت أكثر مما تساويه نقودك لجودة الطعام فى أى صنف ، فتفضل بدفع ماتظن أنه يوازى ما حصلت عليه من اللذة . وهذا المبلغ سينفق فى إشباع الجياع

وكان عدد الذين يدفعون هذه المبالغ الاضافية مثيراً للدهشة . ولكن كليم لم يتعجب لذلك . لأن إيمانه بالبشرية صار ينمو مع مرور الأيام وتقدمه فى السن والتجربة

بيد أن نجاح هذه التجربة قوى إيمانه وجعله يفكر فى تنفيذها على نطاق أوسع تتولاه الحكومات . ولكن من الذى يتكفل بنشر الدعاية بين صفوف الناس والتمهيد لها فى الرأى العام وحمل الساسة على اعتناقها ؟

الرجل الكبير ! صاحب مجموعة الصحف الهائلة !

وطالع هتريبتا ذات يوم على غير انتظار بقوله :

— عندى فكرة . سأذهب لمقابلة أخيك وليم

فاعتدلت فى مقعدها ورمقته بنظرة فاحصة ثم قالت :

— أنت تعلم يا كليم أنه ليس وراء ذلك طائل

— بل ربما كانت هناك فائدة . فقد اتخذ زوجة جديدة كما تعلمين

— لا يمكن أن تكون أفضل من كانداس

— ربما . فقد كانت لطيفة حقاً . ولكن وليم يحب هذه المرأة الجديدة . إذن فمن المحتمل أن يكون حبها قد أحدث فى نفسه تغيراً . ربما يكون قد أذكى قلبه

— إنك حالم يا كليم . فهو الآن رجل خطير جميع الناس يطالعون صحفه

— ولهذا فمن الواجب أن يعمل شيئاً للناس

— بالعكس . إنه يكره الناس ويزدريهم وإلا لما أخرج لهم مثل هذه الصحف المزيلة . وأنا أعرف لماذا يخرج هذه الصحف . إنه يشغل بسخافاتها الناس عما هو أجدى وأسمى . كما يعيش الصينيون على الأفيون . ومتى تعودها الناس وأحبوها تبعوا الرجل الذى يقدمها اليهم

— لست متشائماً مثلك يا هنرييتا . وأرفض أن أرسم لوليم هذه الصورة القاتمة وسأذهب لأتأكد بنفسى



كانت امروى تعزف على البيانو عندما فتح هنرى الخادم الانجليزى الباب وتنحنح ، فرفعت رأسها دون أن تتوقف عن العزف

— من فضلك يا مولاتى . زوج أخت المستر لين هنا

— مستر أرميا كاميرون ؟

وكانت قد قابلت أرميا وروث واستلطفتهما كثيراً وإن كان أرميا للأسف هو شقيق زوجة وليم الأولى . وكان أرميا من البراعة حين قال لها عند أول لقاء :

— أرجو ألا يضايقك أنى شقيق كانداس . وأؤكد لك أنها تفهم الموقف على حقيقته . ولا مانع عندها من مقابلتك . فهى إنسانة سمحة طيبة القلب

ولكن هنرى سعل مرة أخرى وقال :

— إنه ليس مستر أرميا يا سيدتى . بل زوج شقيقته الآخر . مستر ميلر

فتركت ليدى امروى العزف . لأنها كانت قد سمعت عن هنرييتا التى تزوجت شخصاً غريب الأطوار اسمه كليم نجح نجاحاً هائلا فى احتكاراته الغذائية . وبينما هى تفكر هل تستقبله أو لا تستقبله ، وجدته ينظر اليها من فرجة الباب وقد تشعث شعره الأشيب . وأذهلتها نحافته وشدة وميض عينيه الزرقاوين

— تفضل بالدخول . إنك تبدو بحاجة إلى فنجان ساخن من الشاى . أحضر شاياً ساخناً يا هنرى من فضلك

— أجل يا مولاتى

ورأى كليم أمامه سيدة غاية فى الرقة واللطف . وكان فى الواقع يشعر

بدوار خفيف لأنه لم يأكل شيئاً منذ الصباح ، فابتسم وقال لها :
— أظنني جائعاً
فأجلسته على الفور فى مقعد مريح ووضعت وسادة تحت قدميه . وكانت النار مشتعلة فى المدفأة بالقرب منه فشعر بالراحة وأخلد اليها . ولما دخل الخادم بابريق الشاى صبت له فنجاناً وقالت لهنرى :
— أحضر له بيضة نصف مسلوقة
— أنا لا أهضم البيض
— ولكنك فى حاجة اليه فأنت شديد الشحوب
— لا تضعى لبناً فى شايى من فضلك
وأقبل على الشاى فشرب فنجانين كبيرين متلذذاً بطعمه الفاخر . ثم شريحتين من البسكويت الساخن . وأكل بعد ذلك البيضة المسلوقة بشهية فشعر بتجدد نشاطه . وابتسم لها ابتسامة الأطفال ، فابتسمت له ، وعندئذ قال لها :
— إن الطعام يصنع الأعاجيب . لست أدرى كيف أناديك ؟
— إمروى طبعاً . وأنت كليم فيما أعلم
— ألست تحملين لقب ليدى ؟
— بلى . ولكنى الآن أمريكية
— عرفت الآن بالتجربة أنك إنسانة تهتم باطعام الجائعين وتجد فى ذلك لذة . وقد أتيت لأقابل وليم بهذا الصدد
— أظنك تشتغل بالأطعمة ؟
— بل أشتغل بالناس وأهتم باطعامهم
ثم مال فى مقعده إلى الأمام واشتعلت حماسته وراح يشرح لها فكرته . وكان قد عول قبل حضوره ألا يحبها إكراماً لكانداس ولكنه نسى هذا التحفظ وأحبها فعلا . فكانداس كانت لطيفة عطوفاً . ولكن عطف الأطفال ورقتهم . أما هذه فتبدو شخصاً ناضجاً يفهم ويقدر
— هل فهمت مرادى يا إمروى ؟

— فهمته . وأعتقد أن فكرتك رائعة . بيد أنك سابق لزمنك . وهذه هى مصيبة جميع الأفكار العظيمة . لهذا فلن تعيش حتى ترى فكرتك وقد اعتنقها الناس وصاروا يرون الطعام حقاً طبيعياً كالماء والهواء

— أنا لا أكتفى منك بهذا الفهم الجيد بل كل من يفهم مطالب بالعمل . وواجبنا الآن أن نوصل هذه الحقيقة إلى أفهام الناس ولهذا حضرت لأقابل وليم فان له تأثيراً عظيما على الملايين

وفى هذه اللحظة وصل وليم فلما رأى كليم ظهرت على وجهه علائم الدهشة والامتعاض . فقالت إمروى على الفور :

— ادخل يا وليم . فانى أصغى لأروع من قابلتهم من الناس . إنه كليم

فلم يجد بداً من حمل نفسه على الدخول والتلطف اليه مادامت هذه رغبتها . فقد التقت عيناها بعينيه لحظة قصيرة فأذعن كعادته لها ذلك الاذعان الذى لم يعرفه فى حياته لأحد غيرها . وصافح كليم وحياه ثم جلس و تناول فنجان الشاى من يد إمروى

— الحقيقة يا وليم أنى جئت لمقابلتك . ولكن أسعدنى الحظ بالتحدث إلى زوجتك الفاضلة . وقد أحسنت استقبالى وأطعمتنى لأنى لم أكن تناولت غدائى بعد

وبادر كليم ببسط نظريته . فوضع وليم فنجانه من يده وقال :

— إن ماتقترحه خليق أن يقلب نظام الحكومة إن هى نفذته بحذافيره . فالقاعدة الاقتصادية السليمة ان من ليس معه نقود لا يمكن أن يشترى . وفكرتك مقتضاها ان تتجاهل النقود وقيمتها وقوتها ونعطى الناس الطعام بالمجان . فمن الذى يدفع ثمن الطعام لمنتجيه من المزارعين وغيرهم ؟

— ولكن الأزمة تجعل المنتجين لا ينالون فعلا أى مقابل للطعام الذى ينتجونه . لأنه يفسد لكثرته وعدم قدرة الناس على شرائه فيضيع عليهم

— من الخير ألف مرة أن يترك الطعام يتعفن من أن نقلب نظامنا الاقتصادى كله

— ليكن لك ما تريد ياوليم . ولندفع الثمن للمنتجين . ندفعه من أموال الضرائب

فظهر الذعر على وجه وليم وصاح :

— أنت تريد الحكومة أن تطعم الشعب ؟ هذه إذن دولة خيرية !

— ماذا تقول يا رجل ؟ انى أفكر فى الشعب الجائع ياوليم . وما الدولة بغير شعب ؟ وما التجارة إن مات جميع المشترين ؟ وما الحكومة إن مات جميع الرعايا ؟

— هذا هراء فارغ

ثم نهض وقال لزوج أخته :

— إننا لن نتفق . وأنا أوجه صحفي كما يتراءى لى . صدقنى انه يؤسفنى أن أرى أى انسان جائعاً . ولكنى أعتقد أيضاً انه ما من جائع إلا وهو مسئول عن جوعه . فبلادنا بلاد تكافؤ الفرص . وحياتى نفسها دليل على ذلك . فما من أحد ساعدنى على النجاح . وما استطعته بمفردى يستطيعه الآخرون . وهذه عقيدتى كأمريكى

فنظر اليه كليم نظرة ثائرة ثم قال :

— إنك لا تدرى ما أنت فاعل

ثم دار على عقبيه وخرج كمن يهرب من الجحيم . وانطلق لا يلوى على شىء الى الفندق حيث كانت هنرييتا تنتظره وقد أقلقتها غيبته الطويلة . وقبل أن تقول له حرفاً واحداً هتف بها :

— اجمعى حاجياتك بسرعة . فسنركب أول قطار الى وشنطن . لأنى أنوى مقابلة ساكن البيت الأبيض ولو شققت طريقى اليه بالقوة



وتكررت المأساة فى وشنطن ، فقد قال له وزير المالية ان سياسة الحكومة ترمى الى تحديد الانتاج . ثم أطلق ضحكة مدوية عند ماعرض عليه كليم فكرته وهكذا عاد كليم الى بيته فى أوهيو مخيب الأمل محموماً

مشكلة الجوع

ظل كليم يكافح ، وقد اتسعت أمامه المشكلة وقامت الشركات الجشعة بخلق المتاعب له ومضايقته بمنازعات قضائية خاضها بكل أعصابه ووصل بها الى المحكمة العليا . حتى إذا اندلع لهيب الحرب العالمية الثانيـة وطد العزم على تعاهلها وقال لهنرييتا :

— دعيها تتلظى وتشتعل وتتسع رقعتها . فقد فرغ جهدى

— ألست عازماً على إغلاق مطاعمك الآن وقد وجد جميع العاطلين عملا فى صفوف الجيش أو مصانعه ؟

— لقد فكرت فى ذلك فعلا . فهذا العمل لا يستهوينى لذاته . وأحسنى سأتركه لمن يديرونه كمكافأة . بشرط أن يعدونى وعد الشرف بالاستمرار فى تقديم الأطعمة المجانية لـكل من يحتاج إليها . فى جميع الظروف

— لا أظنهم يمانعون فى ذلك ما داموا يربحون . والصينيون كما نعلم فيهم حذق واقتصاد بالفطرة الوراثية

وذات يوم تلقى كليم دعوة لمقابلة الرجل العجيب المصاب بشلل الأطفال والذى تعهد بشفاء فرانكلين روزفلت من الشلل . فانطلق إليه كليم خفيفاً ، وشرح له نظرياته بكل حماسة . والرجل مقبل عليه ببساطة الانسان العظيم الذى لا يستحى أن يكشف عن جهله بما لا يعلم . حتى لقد نسى كليم أن هذا الجالس أمامه وراء مكتب كبير حافل بالتحف الصغيرة هو رئيس جمهورية الولايات المتحدة وراح يحدثه ببساطة ويروى له ذكرياته عن بلاد الصين وعقلية شعبها

وقد دهش الرئيس عندما سمع من كليم أن الصين من الدول القليلة المكتفية بمواردها ولا تحتاج لاستيراد غذاء من الخارج

— عجباً ، يبدو لى أنى لبثت طول حياتى أسمع عن مجاعات فى الصين

— ذلك لأن أصقاعها النائية معزولة لا تربطها بسائر البقاع طرق حديثة فلا يستطيمون نقل المحصولات الفائضة الى مناطق المجاعات . فمشكلة الجوع فى الصين هى بعينها مشكلة الجوع فى العالم مصغرة . وثق أنك لن تستطيع تحقيق سلام ثابت الأركان ما لم تحل مشكلة نقل الفائض الى مناطق القحط وبذلك تقضى على المجاعات قضاء تاماً

— ان الصين لا تعنينا الآن. ولكن يهمنى كثيراً الموقف العالمى ومشكلة الجوع فى وطننا . ولهذا أرجو ألا تحرمنى من خبرتك

فلما عاد كليم الى جوار هنريتا بدأ بحماسة يكتب سلسلة خطابات جليلة القيمة ليثقف بها ذلك الرجل الباسم الطيب القلب الذى لم يكن قد أدرك بعد أن العالم كله كوكب واحد وأن الحدود إنما هى خطوط وهمية

وعندما أصدر روزفلت قراراً فى بداية الحرب بتقديم الطعام المجانى للمحتاجين إليه ، لم يعلم الكثيرون الى أى حد هم مدينون بذلك القانون لكليم ميلر

وعندما دخلت أمريكا الحرب بصفة فعلية تطوع ليشرف على إدارة التغذية التابعة للجيش . ومن هناك استمر فى تثقيف ساكن البيت الأبيض . كما وجد الوسائل الفعالة لاقامة عشرات المطاعم الكبيرة على نفقات الجيش زينها بأقفاص العصافير ونغمات الموسيقى . فالطعام فى نظره يجب أن يكون من أسباب السعادة كى يشعر الانسان بنعمة الحياة

وظل كليم يحصى الأيام عسى أن تنتهى هذه الحرب فيجمع آراءه فى إنجيل واحد يهديه الى البيت الأبيض والى شعوب الأرض

وفى الوقت نفسه راح يجرى التجارب لاستخراج غذاء جديد رخيص يكفل الصحة والشبع لسكان العالم ويقضى على المجاعات نهائياً . وكانت هنريتا بتخصصها فى الكيمياء تساعده فى هذا العمل وتجرى معه التجارب على فول الصويا

أما وليم فلم يفلح زواجه الجديد فى تخليصه من قلقه الداخلى . كان يشعر فى أعماقه بخوف دائم . كان بحاجة الى سلطة عليا ليست من هذا العالم تعطيه الأمان والطمأنينة وقد أثر ذلك على علاقته بامروى . أمروى اللطيفة النقية الناضجة التي لا تقيم وزناً كبيراً لأمور الجنس فلم يقلقها التغير الذى طرأ على وليم بقدر ما أقلقها على أثره فى نفسه

وأخيراً وجد وليم نفسه يواجه مشكلته الكبرى . هل هناك سلطة عليا فى

هذا العالم يستطيع أن يتلقى منها باستمرار التأكيد بأنه على صواب ؟

انه يؤمن بإله . ولكن الإله الذى يؤمن به على ملةوالده إله لاوسيط بينه وبين البشر . وهو مفتقر الى سلطة هـذا الوسيط والا أحس بأنه تائه ضال وسط الضباب . ولا يمكن أن يجد ذلك الوسيط إلا فى الديانة الكاثوليكية

وهكذا اعتنق وليم لين الكثلكة . وصار يلم فى كل يوم تقريباً بمكتب الكردينال يفرغ بين يديه شكوكه وقلقه ويتلقى منه زاداً من الطمأنينة . حتى استرد ثقته بنفسه عند ما اطمأن بمتانة الصلة المحسوسة بينه وبين قوة الكون العظمى

ومنذ ذلك اليوم شفى وليم من علته العارضة . وفسرت امروى المسألة بأنه وفق فى المكتب ونجح مشروع من مشروعاته فأشاع ذلك الغبطة فى قلبه

والواقع ان الكردينال عرف كيف يدخل فى ذهنه انه رجل العالم الجديد . فعصر الرأس المالية التقليدية قد انتهى . وهو يمثل الرأس مالية الجديدة التى تقوم على تحرى حاجات الشعب . وليس شىء أمس بالشعب من حاجته الى التسلية والى القيادة الرشيدة . وهو خير من يقوم بهذه المهمة المزدوجة

وفى عصر يوم كان كليم جالساً بجوار هنرييتا يطالع الصحف . وكان الوقت صيفاً . أول صيف عقب انتهاء الحرب . ذلك الانتهاء الذى كان محنة شديدة لكليم . فان المسكين كاد يموت غماً على أثر القاء القنابل الذرية على المدينتين اليابانيتين . وقد فوجىء المسكين مثل غيره من سواد الأمريكيين بوجود هذه القنابل الجهنمية عند ما فتح الصحيفة منذ عام واكتشف الحقيقة البشعة . فطفرت الدموع من عينيه للمئات والآلاف من الضحايا الذين لم تقع عليهم عينه

لم يكن له كسائر الأمريكيين يد فى هذه الجريمة . ومع هذا كان يشعر انه مسئول ومذنب لأنه أمريكى . فقام من مكانه وهو لايكاد يرى موطىء قدميه من كثرة الدموع المنهمرة من عينيه وبحث عن هنرييتا حتى وجدها فى المعمل . فوقف ومد اليها الجريدة لأن البكاء كان يخنقه فلا يستطيع الكلام . فلما قرأت العناوين الضخمة طوقته بذراعيها ووقف الاثنان يبكيان خزياً ورعباً

ومضت أسابيع طويلة وهو طريح الفراش لا تتقبل معدته طعاماً لشدة غثيانه . ثم عند ما قام من الفراش أضرب عن مطالعة الصحف وانكب على تجاربه لصنع الطعام الجديد . ورفض نصيحة الطبيب باجراء فحص بالأشعة

وكان الرجل الكبير ساكن البيت الأبيض قد مات وحل محله رجل صغير. فشد كليم الرحال اليه وبشره بمشروعه. فغمره الرجل الصغير بابتساماته وصرفه وهو يعتقد انه أقنعه

وفى الربيع التالى أعلن عن رغبته فى الذهاب الى سان فرنسسكو ليشرح لجمعية الأمم مشكلة الجوع وكيف ينبغى القضاء عليها إن كانت النية معقودة حقاً على تحقيق سلام دائم. وبصعوبة شديدة استطاعت هنرييتا أن تمنعه من الذهاب لأنها تعلم كيف يسخر رجال الأمم المتحدة منه ويسمونه المجنون

أشربت هنرييتا كراهية الناس لأنهم يسخرون من كليم، فجعلت همها فى إبقائه فى البيت مشغولا بأبحاثه. بل كانت تعاونه وتشتغل معه بحماسة لأن ذلك على الأقل يحميه من استهزاء الناس

وفى هذا الصباح وهو جالس معها يقرأ الصحف صاح بها فجأة:

— يا هنرييتا.. لقد خسرنا الحرب!

— ماذا تعنى بحق السماء؟ لقد انتهت الحرب منذ سنة

— فى هذه الصحيفة تعلن الحكومة انها لن تساعد الشعوب المحتلة ومعنى هذا قيام حرب عالمية ثالثة

— لا يصل الخطر الى هذا الحد يا كليم

— بل يصل. لأن الانسانية فى مفرق الطرق. ولن يرجع الناس دون الحصول على حريتهم بأى ثمن. لا بد لنا من إطعام الشعوب الجائعة ولو كانت داخل الستار الحديدى. هذا ما يجب أن نصنعه وإلا فلن يكون فى العالم سلام

وفى شهر مارس سنة ١٩٥٠ توجه كليم لمقابلة وليم للمرة الثالثة والأخيرة. وكان الكثير مما تنبأ به فى المرتين السابقتين قد تحقق بحذافيره حتى لقد خطر له انه سيجد من وليم فى هذه المرة أذناً صاغية. بيد ان وليم لقيه على النحو الذى عرفناه فخرج من عنده خائب الرجاء

وبعد ثلاثة أيام رأته هنرييتا مقبلا يطوح حقيبته فى يده. فلم يستطع الوصول الى الباب فجلس على العتبة. وأسرعت اليه فزعة

— ليس بى شىء. وإنما خذلتنى قدماى

فحملته حملا الى فراشه

ووجدت المسكينة صعوبة كبيرة فى حمله على ملازمة الفراش. ولم تنفع معه

التوسلات فى دخول المستشفى . لأن خاطراً واحداً كان مستوليا على رأسه

— يجب أن أتم تحضير الغذاء العالمى الجديد قبل أن أموت

ومن ثم عرفت هنرييتا كيف رفض وليم أن يبلغ رسالته الى العالم . ولهذا فليس أمامه إلا أن يخرج على العالم بالغذاء الجديد الذى سيفرض نفسه فرضاً بغير حاجة الى دعاية

وبعد بضعة أيام كان فى المعمل يعمل بانهماك فى تحضير مزيج من اللبن الجاف وفول الصويا وشرائح البطاطس . ولم تحاول هنرييتا معارضته فى شىء . لم يكن عندها شك فى مرضه ولكن لا حيلة لها

تحول العمل الى سباق مع الزمن والموت . فكان مشغولا بالتجارب لا يأكل ولا يشرب . فتقدم اليه بين الحين والحين فنجاناً من الشاى به بيضة نيئة مضروبة . فيرتشف رشفة بين الحين والحين

وأقبل الصيف ولم تظهر بوادر النجاح . وفى ذات يوم وهو يهم بالخروج من الفراش وقع على الأرض . ونظرت اليه هنرييتا فوجدت وجهه محتقنا وعينيه حمراوين ، فرفعته بيدها :

— ألا تفكر فىّ قليلا يا كليم ؟

— ومتى لم أفكر فيك يا هنرييتا ؟

وبدا صوته خاوياً أجوف

— لاتغادر الفراش الى أن يحضر الطبيب

واتصلت بالطبيب تليفونيا وطلبت منه الحضور فوراً . ثم جلست بجواره صامتة وقد أخذت احدى يديه النحيلتين بين يديها لأنها لم تجد من المناسب تبديد قواه فى الحديث . بيد انه أبى أن يسكت

— يا هنرييتا . ان آخر تركيب وصلت اليه فى هذه الكراسة الصغيرة فى الدرج الأيمن بمكتبى . فأرجوك ياهنرييتا إذا لم أستطع أن أتم البحث

— طبعاً لن تتمه . لأنى لن أبقيك هنا . سآخذك الى كاليفورنيا

وكانت تقول ذلك لتحمله على السكوت . وقد أدرك ذلك فلما سكتت استطرد يصف لها فكرته عن ذلك التركيب الجديد . الى أن صرخ فجأة تحت وطأة ألم حاد ثم غشى عليه

وبعد ساعتين كان قد تم فحصه على أثر نقله الى المستشفى وخرج الدكتور

وود فاتجه نحو هنريتا وقال لها :

— لابد من نقله الى المستشفى المركزى

— ماذا به على وجه التحديد ؟

— ليس المهم ما به بل ما ليس به

— ماذا تعنى ؟

— إن المسكين لم تعد له معدة . كان من الواجب أن تجرى له عملية جراحية منذ سنوات طويلة فطبيعته القلقة سببت اصابته بقرحة أهملها وتفاقمت عزيد من القلق حتى أصبحت شيئاً خبيثاً أكل معدته أكلا

— إن طبيعته ليست قلقة . وإنما هو فقط يرى نفسه مسئولا عن العالم كله . فيجوع مع كل رجل جائع وامرأة جائعة وطفل جائع . إنه ظل يصلب نفسه فى كل يوم مدة سنوات طويلة

— وهذه هى الطبيعة القلقة ياسيدتى . وقضيته قضية خاسرة . فما فى العالم من متاعب لا يمكن لرجل واحد أن يعالجه . وأحسبك طالما قات له ذلك

— حاشاى ! لم أخذله أبداً ولم أفقده الايمان بصواب رأيه

— أرى على كل حال أن تعودى الى دارك وسنتصل بك عند الضرورة

— لا يمكن لأحد أن يفرق بينى وبينه فى هذا الوقت

لم تطل به الحياة بعد ذلك أسبوعاً ولم تكن واثقة انه شعر بوجودها لأنهم كانوا يخدرونه على الدوام ليخففوا عذابه . وكلما عرض عليها الممرضات الطعام كانت تأكل ولاتتردد لأنها تشعر ان كليم يريدها أن تأكل . فرسالته الوحيدة فى الحياة أن يأكل الناس حتى يشبعوا . ولو انه أفاق لدعاها بنفسه أن تأكل كانوا يغذونه بحقن فى العرق . وقد أخبرتها الممرضة ان الطبيب وجد صعوبة فى حياكة معدته بعد العملية لأنها كانت بالية

— وإننا لنعجب كيف ظل حياً حتى الآن يا مسز ميلر ؟ ألم تعرفى قبل الآن حقيقة مرضه ؟

— إنه كان لا يحب الحديث عن نفسه ولايشكو من أوجاعه . وأظن انه كان فى استطاعتى أن أنقذ حياته بالحيلولة منذ البداية بينه وبين مشروعاته المضنية . ولكنى لم أقترف هذه الجريمة . لأننى كنت أعلم يقيناً ان هناك ماهو أهم عنده بكثير من الحياة نفسها

وتغامزت الممرضات فيما بينهن انها امرأة شريرة لا تحب زوجها . وانها دفعته الى الموت لترثه وها هى تجلس بجوار فراش موته ولا تذرف عليه دمعة

وكانت وفاته فى الساعة الثانية صباحاً بعد غيبوبة مستمرة . وكان الطبيب قد سألها قبل ذلك فى أول الليل :

— أتحبين يا مسز ميلر أن أقف المخدر ليثوب إلى نفسه قليلا ويعرفك ؟

— وهل يتعذب ؟ . . إذن لا تفعل

فما لحظة بالقياس إلى السنوات الطويلة التي عاشتها معه . وإلى السنوات التي لا مناص لها من أن تعيشها من دونه ؟

مات كليم فى هدوء . وهى جالسة بجواره لاتتحرك وفى فمها مرارة شديدة سرت إلى جسمها كله . فمنذ انتصاف الليل وهى تشعر بملك الموت يرف بأجنحته فى الحجرة . وفى الساعة الثانية تماماً أحست أن الواقعة وقعت فاقشعر بدنها وتلقى فؤادها الصدمة

كانت يده فى يدها خفيفة هزيلة باردة فمالت فوق الفراش وقربت وجهها من وجهه . كلا ، لا جدوى من ملامسة الشفتين الآن بعد أن فقدت القبلة معناها ولم تعد صلة بين نفسين . خير من ذلك ألف مرة أن تستبقى حية فى وجدانها ذكرى صور الحب التى كانت بينهما ، فذلك أفضل من أن تطبعها بختام قاتم لا تتلقى عليه جوابا

لقد كان محباً كاملاً لطيفاً رقيقاً غير أنانى . ما أكثر الساعات التي كان لا يفكر فيها على وجه التحديد . ولكنه فى ذلك كمن لا يفكر فى ذات نفسه عندما يشتغل بمهم أمره

وعندما دخلت الممرضة بعد قليل وفحصته قالت لها :

— أخشى أنها النهاية يا مسز ميلر

فوقفت هنرييتا وكادت تخونها ركبتاها ثم قالت بصوت متحشرج :

— هل لك فى أن تنظرى إلى الناحية الأخرى قليلا ؟

فأشاحت الممرضة بوجهها وعضت على شفتها . وانحنت هنرييتا فوق كليم ثم ألصقت خدها بخده ووضعت فمها فى أذنه وهمست قائلة :

— شكراً لك أيها العزيز لأنك ملأت حياتى نوراً

أوهـــام

وجدت هنرييتا فى بامب خير معين . فساعدها فى تصفية الأسواق . لأنه لم يعد لها مأرب فى العمليات الواسعة التي اهتم بهما كليم من أجل أهدافه العظيمة . فسهل عليها أن تبيع كل شيء بسرعة لأنها عرضتها بأثمان بخسة جداً

ورأت أن تمنح سوق أوهيو لبامب نظير خدماته ومنحته أيضاً بيتها ثم شدت الرحال إلى نيويورك لتقيم بالقرب من العلامة بركارد فلت الخبير الألمانى المشهور فى الكيمياء الغذائية لتستعين به فى إتمام حلم زوجها

وكان هذا العالم المسن قد هاجر من ألمانيا بعد استيلاء هتلر على مقاليد السلطة فيها . ومن حسن الحظ أنه كان يقيم بمفرده مع زوجته وليس لهما أولاد . فسهل عليه أن يهاجر غير آسف . وبعد قليل ماتت زوجته فحزن عليها حزناً عظيماً وانكب على سلوته الوحيدة فى الحياة وهى التجارب العلمية . وفى فرنسا استطاع أن يعيش من إيراد الترجمات الفرنسية لمؤلفاته ، وأشهرها كتاب عنوانه :

(الكيمياء الغذائية وعلاقتها بالطبيعة البشرية)

ومن باريس انتقل الى لندن حيث التقى بأصدقاء يسروا له الهجرة إلى نيويورك واستطاع أن يستأنف أبحاثه فى معمل للتجارب تملكه شركة من شركات التغذية . وكان الدكتور فلت لا يكترث للمغانم المادية ويكتفى من الشركة بمرتب يكفى ضرورياته

وقد اكتشفت هنرييتا عنوان الدكتور فلت بين أوراق كليم ، فانتعشت لديها الآمال فى استئناف رسالة زوجها على يد هذا العبقرى ، وكتبت اليه من فورها ، فجاءها منه رد رقيق شجعها على السفر لمقابلته

ولما التقت هنرييتا بالعالم الشيخ وعرضت عليه آراء زوجها العزيز راقها منه أنه لم يهزأ ولم يسخر كسائر الناس . بل استصوب اتجاهه لاكتشاف صيغة

غذائية كاملة أساسها نبات الفول . وأكد لها أن الاكتشاف قد يحتاج إلى مجهود سنوات قليلة . وراقها أكثر من ذلك أن الرجل كان يؤمن إيماناً وطيداً بما آمن به كليم

— يا عزيزتى فراو ميلر . لابد للعالم فى السنوات القليلة المقبلة أن يلتفت لهذه المشكلة ويبحث عن وسيلة لاطعام الملايين من الأيتام والجياع . وعندما يستيقظ ضمير العالم سيجدنا فى انتظار يقظته وفى انتظار الغذاء المنشود !

فامتلأت عينا هنرييتا بدموع الامتنان لحماسة هذا العالم الشيخ

ولم يخطر لهنرييتا أن تخبر أحداً من أعضاء أسرتها بوجودها فى نيويورك . بل لم يخطر لها على الاطلاق أن تخبرهم بوفاة كليم . بيد أنهم عرفوا النبأ مما نشرته الصحف . فقد كان شخصية معروفة . ووصلتها برقية تعزية من وليم . أما روث فأرسلت باقة من الزهر . وكانت والدتها فى انجلترا فبعثت من هناك خطاباً تعزية

ولم يخطر لهنرييتا وهى فى نيويورك أن تزور أحداً سوى كانداس . وبعد أن خرجت من الفندق على قصد زيارتها فكرت أن تمر بمعمل الدكتور فلته ومعها كراسة مذكرات كليم . وراح الرجل يتصفحها بأناة ثم سألها :

— ما هو حظ فقيدك من التعليم ؟

— سنوات قليلة فى المرحلة الابتدائية . ثم لا شىء

— لابد أنه كان ملهماً يا سيدتى

— إن عبقريته تنحصر فى قدرته الخارقة على التعلم من ملاحظة الناس . كان يشعر باحتياجاتهم ويؤسس معلوماته على هذا الأساس . فاحتياجات الناس كانت فلسفته وديانته . وأبحاثه العلمية كانت نوعاً من الصلاة . ولو أنك التقيت به يا سيدى لحسبته إنساناً أقل من العادى . ساذجاً جداً

— وكذلك يحسب اينشتين من يلقاه

ثم تطرق الحديث بعد ذلك إلى أسرار الحيوية فى الانسان . وأكد لها أن الطريق الذى سار فيه زوجها لابد أن يؤتى ثماره ولهذا سيستمر فى البحث حتى يحقق ما رمى اليه . ووعدته أن تساعده فى البحث بنفسها

وبذلك وضع أساس التعاون المشترك فى ذلك العمل الخاص . ثم تركته وذهبت لزيارة صديقتها كانداس

واستقبلتها كانداس مفتوحة الذراعين وقالت لها :

— هذا يا هنريتا أجمل صنيع أقدمت عليه فى حياتك . اجلسى ودعينى انظر اليك . لقد بكيت كثيراً عندما سمعت بوفاة كليم وفكرت فى الكتابة اليك لكننى لم أستطع

— لا بأس . دعينى أنظر اليك . هل أنت سعيدة يا كاندى ؟

— أسعد من أى يوم مضى فى حياتى . ولا أريد أن أقول إننى لم أكن سعيدة مع وليم . بل كنت سعيدة معه أيضاً . فأنا امرأة من السهل جداً أن تشعر بالسعادة . ولكنى كنت سعيدة يومئذ وحدى ، لأننى لم أكن أشعر أنه قريب منى مطلقاً . أما الآن . . .

— أتراك قد تزوجت ياكانداس ؟

— إن سيث إنسان طيب جداً . يحبنى أكثر من كل شىء فى الحياة . ولكنى لا ألوم وليم . ولا أسمح لسيث أن يناله بكلمة سوء . إنه شعر بالحاجة إلى شريكة تفهمه . وقد وجدت أنا فى سيث شريكا يفهمنى لأننا أبناء بيئة واحدة وننتمى لعالم واحد

— المهم ياعزيزتى أنك سعيدة . فالسعادة أهم ما فى الحياة . ولست أعرف شراً حقيقياً فى الدنيا سوى الشقاء

— كم يسعدنى أن أسمعك تقولين هذا . وطالما قلته لوليم ولكنه لم يفهم مرادى . وهذا ما أقوله لأولادى الآن . إلا أنهم أبناء وليم أيضاً . وهم به جد فخورين

وفى هذه اللحظة دخل سيث وهو رجل وسيم بشوش الوجه أشيب الشعر . فلما عرف من هى رحب بها كثيراً . فقالت له :

— إنى شديدة التعلق بكانداس وقد أردت أن أطمئن لحسن رعايتك لها

— لا تتعجلى الحكم . واصبرى قليلا تكتشفى بسرعة كثرة عيوبى

فلم تدر هنريتا ماذا تقول لأنها لم تتعود هذه الأحاديث المازحة الفارغة . بل نظرت إلى كانداس وقالت لها :

— ياعزيزتى . إنى لم أذق شيئاً منذ ساعة الغداء

فأمرت كانداس الخادم باعداد الشاى على الفور . فشربت وأكلت بكل شهية ، ثم انصرفت وهى تشعر بالسعادة

ووليم لين لم يعد شاباً فى مقتبل العمر . لقد كبر أبناؤه وتزوجوا وأنجبوا . فلما رأى نفسه جداً شعر بوطأة السن دفعة واحدة . ولـكنه فى الوقت نفسه كان يرى أمه شديدة الحيوية وهى فى عنفوان الثمانين فيشعر انه ما زال شاباً

ومن عجب ان اغتباطه بكونهـا مصدر اعتقاده بصغر سنه ، جعله شديد الاعجاب بها ، يقنع نفسه انه شبيهها فى كل شىء . وفى طول العمر والعافية ضمناً

ولـكن هذا لم يمنعه من الاستياء لبعض تصرفاتها وعدم مبالاتها بالمسئوليات. فقد حدث أن اختلفت روث مع أرميا . فلم تبال وشدت الرحال الى انجلترا . وشكى الأمر الى امروى التى أنصتت كعادتها ثم اقترحت عليه أن يرسل برقية يدعو والدته للعودة فوراً كى تعيش مع روث . فأطاع إشارتها على الفور

وتلقت مسز لين البرقية فى اليوم التالى وهى مقيمة فى بيت كبير من البيوت الريفية أعجبها موقعه فقررت البقـاء فيه ما بقى من عمرها . وعندئذ هزت كتفيها الضخمين وقالت لزائرتها الـكونتس بورلى :

— يبدو ان زوج ابنتى الصغيرة أصيب بخبل ونقل الى مستشفى الأمراض العقلية . ولـكن ليس هذا مبرراً لازعاجى فى حياتى الخاصة . إنى حريصة على التمتع بحريق ما بقى لى من العمر . ولـكن ما دام وليم قد وضع فى رأسه أن أعود فلا أرى لنفسى مناصاً من العودة

وبعد أسبوع استقلت الباخرة الى نيويورك . وأخذت روث بين أحضانها الضخمة

— لا تهتمى . فسأقيم معك . ولن تشعرى بحـاجتك الى أحد . سأقيم معك أنت فأنت أحوج الىّ من هنرييتا . وبهذه المناسبة أين هى ؟

— لست أدرى فهى لم تتصل بنا

— ولـكن كيف تدهورت حالة أرميا الى هذا الحد ؟

— لقد خدعنا يا أماه . والأطباء يشخصون الحالة بأنه يشعر بالتعاسة فى أعماقه لهـذا انهمك فى الشراب بصورة متلفة . كان يزعم لى انه ذاهب الى المـكتب . ثم يستأجر حجرة فى الفندق وينهمك فى الشراب بمفرده . وأؤكد لك انى لست السبب فى تعاسته إن كان تعليل الأطباء صحيحاً

— هراء . فبعض الرجال يحبون شرب الخمر لذاتها . وليس لنسائهم دخل فى ذلك

وكانت امروى جالسة ترقب الأم وابنتها فى صمت وهى تبتسم ابتسامتها الوديعة . ولكنها كانت تعلم يقيناً سبب كارثة ارميا . انه فعل ذلك بنفسه انتقاماً من وليم . كما ينتقم الرجل الضعيف من رجل قوى لا يغلب . لقد أثبت وليم انه الرجل الأقوى والمسيطر الذى لا يبالى فى سبيل تمكين سلطانه بشىء . وحز ذلك فى كبرياء ارميا الذى يعلم انه أفضل الرجلين عنصراً وأنبلهما نفساً

كان عطفها مع الضعيف النبيل . لكنها كانت أعقل من أن تتخلى عن الرابح القوى . ثم انهـا هى أيضاً قوية لا تقهر فى سيطرتها على وليم . ولئن أشفقت على روث ورثت لهـا إلا ان اعجابها كله بوالدة وليم التى تجلس هادئة الأعماق لاتذرف دمعة على سوء حظ ابنتها الشابة . ولاسيما حين سمعتها تقول :

— لا فائدة فى البكاء يا بنية . وكونى عملية وضعى العواطف جانباً . ان الحل الموفق ان تترك ارميا فى ذلك المستشفى . وفى وسع شقيقته كانداس أن تزوره إن شاءت هناك أو تأخذه عندها . وعليك أن تستأنفى الحياة على أساس جديد وبدونه

وعند ما حضر وليم من مكتبه لم يتردد طويلا فى إصدار قراره

— انى أنصح روث أن تطلب الطلاق . وهذا سهل لأنها ليست كاثوليكية. أما عن نفسى فانى مستريح للخلاص من ارميا لأنه كان عالة وكان مدللا

ثم التفت الى أمه ورمقها باعجاب وقال :

— انك تبدين رائعة يا أماه

— لقد استفدت صحياً من اقامتى القصيرة فى انجلترا

— انى مسرور بعودتك ووجودك بقربى

— إذن أريد منك مكرمة .. أختك هنرييتا . انها تعيش وحدها ولا ندرى كيف . وقد بلغنى انها مندفعة فى طريق زوجها الجنونى عن خزعبلات الطعام

— سأحاول الاجتماع بها واردها الى الصواب . وإن كنت يائساً من إقناعها لما أعرفه من عنادها القديم

وعندئذ تدخلت امروى فى الحديث قائلة :

— ما رأيك إذن أن تتصل بها وتدعوها لعشاء عائلى يجمع الأسرة كلها بمناسبة عودة والدتك من رحلتها . ثم تنتهز هذه الفرصة لتخلو بها وتحدثها ؟

وكالعادة وجد وليم فكرة زوجته الحكيمة رائعة وخف لتنفيذها

وبعد بضعة أيام اجتمع شمل الأسرة فعلا حول مائدة وليم . وجلست هنريتا ، وكأنها بمعزل ، تسمع الأحاديث اللبقة عن السياسة وعن الحرب الكورية وعن الصين الوطنية التي يؤيدها وليم بكل قوته . وعن قرينة النمر شيان كاى تشيك صديقة إمروى الحميمة وكيف أنها من أجمل النساء وأظرفهن وأكثرهن لباقة وثقافة

ثم نهضت إمروى بعد العشاء فعزفت على البيانو ألحاناً عذبة رقيقة مثل صوتها وحركاتها الناعمة . وبعدأن فرغت أومأت بعينها إلى وليم فقال لهنريتا :

— لى معك كلمة يا هنريتا

ثم قادها إلى المكتبة ، تلك المكتبة التي رأته فى المرة السابقة يلازم فيها جثة والدها . وبعد أن استقرت فى مقعدها سألها عن طريقة حياتها الراهنة :

— إنك مليونيرة . ولكنى سمعت أنك تقيمين فى مسكن حقير مع عالم ألمانى طاعن فى السن . تأكلين أحقر الطعام وترتدين من الملابس ما لا يليق بك . إنى مستعد أن أدبر لك مكاناً تعيشين فيه . والأوفق أن تعيشى مع والدتك وروث التى أصبحت الآن وحيدة . فذلك أصون لكرامة العائلة

— إن حياتى ليست شيئاً منفصلا عن رسالة حياة كليم . وسأستمر فى حمل أمانة تلك الرسالة إلى أن أنجح فى تحقيق ما عاش له

وبهت وليم فلم يدر بماذا يجيبها . لقد ظن أن كليم كان أحمق متعصباً ضيق العقل . ولكن ها هو يرى هنريتا متأثرة به بعد موته وهو الذى كان يؤمل أن تتحسن أحوالها وتستقيم حياتها بعد أن تخلصت منه

— إن من الحماقة أن تضيعى عمرك ومواردك المحترمة جرياً وراء وهم من أسخف الأوهام . ويكفى أن تعلمى أننا إذا وفرنا للشعب الطعام بغير مقابل ، والطعام هو الحاجة البشرية الأساسية . فمعظم الناس لن يفكروا فى مزاولة أى عمل

— المسألة يا وليم أعمق جداً من مسألة الطعام . إنها ليست مجرد حشو مصارينهم بالمواد الغذائية . فأنا أعتقد — وكذلك كان كليم يعتقد أيضاً — أن الشعب ما لم يحصل على كفايته من الطعام كفيل أن يثور فى وجه أى حكومة قائمة دون أن يفكر فى صلاحيتها أو فسادها . والحكومة التى تفهم قبل غيرها معنى هذا الغضب المتأجج فى قلوب الجياع وتعمل على تهدئته بتوفير الطعام

هى التى تربح المعركة ، معركة البقـاء . إن الناس يشعرون أنهم لا ينبغى أن يتضوروا جوعاً مهما كانت الأسباب . وقد أخبرنى الدكتور فلت أن وعود هتلر للشعب بتوفير الغذاء كانت هى أول درجات السلم الذى صعد به الى مقاليد السلطة فى ألمانيا

فنهض وليم وراح يتمشى فى المكتبة بقلق شديد وهى تنظر إليه بامعان الى أن وقف أمامها وقال لها :

— انها فكرة خرافية . تصورى أننا نطعم شعباً كشعب الصين مثلا ؟ هذا شىء من رابع المستحيلات !

— ولكن لابد من عمله ، إن عاجلا أو آجلا . ثم لا تنس يا وليم أن هنالك شعوباً أخرى غير شعب الصين يجب أن نطعمها . هناك شعب الهند وسائر شعوب العالم

— أوهام . محض أوهام !

— انها ليست أوهاماً يا وليم . وإنما هى المنطق السديد والتفكير السليم. أتدرى لماذا لا توافق على هذا الرأى ؟

— لماذا ؟

— لأنك أنت وكليم على طرفى نقيض . فهو يؤمن أن العالم يمكن أن يرقى ويتحسن إذا تحسنت أحوال الناس . ومتى تحسنت أحوال الناس وتحرروا من الجوع سعوا من تلقاء أنفسهم الى الرقى والحرية . هذه هى عقيدة كليم . أما عقيدتك فعلى خلاف ذلك . أنت تؤمن أن الشعب يجب أن يكره على الخير وعلى الارتقاء بالأمر وبالسيطرة وبالتشكيل . فالواقع أنكما تهدفان الى غرض واحد هو إيجاد عالم أفضل . ولكنكما تختلفان فى الوسيلة.هو يؤمن بالانسان الحر . وأنت تؤمن بعبودية الانسان وأنه لا يصلح لتحقيق الحرية إلا مكرهاً عليها منقاداً

فثار غضب وليم وقدحت عيناه بالشرر وصاح بها :

— انى أرفض يا هنرييتا هذه المقارنة الفاضحة بينى وبينه . لقد كان كليم رجلا خطراً على الانسانية . أو على الأصح كان يغدو خطراً على الانسانية لو أنه نجح . لقد كان يعمل على تقويض وطننا من أساسه . ولم أكن أحب أن أقول لك هـذا يا هنرييتا . ولكنها معلوماتى السرية . وليست الأموال

الضخمة التى تجمعت لديه إلا ثمن خيانته . وقد كتمت الحقيقة من أجلك لأنى لم أنس أنك شقيقى . أما الآن وقد مات فمن الخير أن تعرف الحقيقة

وحافظت هنرييتا على هدوئها ثم قالت له :

— حسناً يا وليم . لقد فشل كل منا فى فهم صاحبه . وهكذا كنا دائماً . ولكن سيأتى يوم يثبت فيه أن كليم كان على صواب . هذا هو اعتقادى . وعندما يتضح صواب رأى كليم سيكون معنى ذلك اندحارك أنت يا وليم ومن معك من أمثالك

— انك تقولين يا هنرييتا كلاماً رديئاً جداً . فيه سوء وشر

— ربما . ولكنها عقيدتى ...

وأثاره هدوؤها وعنادها حتى لقد هم أن يثور بها مثل ثوراته عندما كانا صغيرين فى بكين . بيد أنه تمالك زمام نفسه وتبعها إلى البهو ثم ساعدها على ارتداء معطفها الأسود

وعندما نبهها الى أنها لم تودع والدتها وسائر الأسرة قالت بهدوء وإيجاز :

— لا داعى لازعاجهم . فليست لدى رغبة فى رؤيتهم

فصحبها الى الباب بنفسه ثم وقف يرقبها . فرآها لا تستوقف سيارة أجرة بل تمضى سائرة على قدميها مرفوعة الرأس والهواء يعبث بشعرها الى أن وقفت عند محطة الأوتوبيس

وكانت الليلة صافية وضياء القمر يملأ الجو. فشاهدها وهى منتظرة تقترب من مصباح الشارع وتفتح حقيبة يدها وتخرج منها نقوداً تعطيها لمتسول . فهز كتفيه وأقفل الباب وعاد أدراجه الى المكتبة حيث خلا بنفسه الى أن تهدأ أعصابه

انها حمقاء وهو لا يطيق الحمق ! كم كان يود لو لم يثر فى نفسه ذكرى كليم . ها هو يتمثله كما رآه أول مرة فى شوارع بكين غلاماً ممزق الثياب قذر الوجه. ها هو يراه يقتحم عليه مكتبه بغير إذن . لقد كان على الدوام فتى سىء التربية لا يعرف حدود اللياقة . ولكن ها هو أخيراً قد مات وترك الدنيا على سعتها ينفرد فيها بالنفوذ والسلطان

وفتح عينيه عندما سمع الموسيقى التى أخذت تعزفها أمروى من جديد . ورويداً رويداً شعر بالشك القديم يراوده وينخر فى قلبه

ترى هل من الممكن أن يكون كليم على صواب ؟

ومد يده إلى آلة التليفون فاتصل بمرشده الروحى الكردينال . وبعد خمس دقائق كان فى طريقه إلى ذلك المصدر الذى يلتمس منه القوة واليقين . وبعد ساعة أخرى عاد من هناك وقد استرد هدوءه وثقته وكبرياءه الظافرة

وفى هذه الساعة كان الكردينال منفرداً بنائبه يتحدثان فى أمر هذا الرجل الكبير بنفوذه وماله وكيف أنه لا يستطيع الحياة يومين متعاقبين بغير معونة كنسية . قال الكردينال :

— لقد تعودت الكنيسة أن يطرق أبوابها كثير من الجياع فى أيام القحط والمحنة . فمن واجبنا كما تعلم أن نغذى الجسد والروح . ولكن فى بعض الأحيان يوجد رجال أقوياء بنفوذهم . والواحد منهم أنفع للكنيسة وأعز لديها من عشرة آلاف آخرين . ومن هؤلاء وليم لين . إن محنته مصدر قوته . إنه قوى جداً بحيث لايدرى ماذا يصنع بهذه القوة . إنه يسعى لتوجيه الناس ، بيد أنه هو نفسه فى حاجة إلى قيادة . ومن أجل هذا تزوج للمرة الثانية فى ساعة سخط وضيق . ولكن النساء ليست عنده شيئاً ذا خطر . لأن جوعه فى الواقع جوع روحى

— إن له نظرات وحشية فى بعض الأحيان . والقسوة التى فى صوته ترسل الرعدة فى دمى

— إنه إنسان عاش فى بيئة غير متجانسة مع نفسه . عاش بين أقوام رحماء فيهم وداعة وليست فيهم صلابة أو أنانية . فلم يألفهم وشعر وهو فى وسطهم بالسأم والغربة

— ألا تستحسن يا سيدنا أن تنصحه بالتخلى عن الترف الذى يعيش فيه . فربما نفعه الركون إلى التقشف

— إن وليم لين فى حقيقته إنسان زاهد . إنه يملك الكثير ولكنه لا يأكل إلا قليلا . واحتياجاته محدودة . لايحتسى الكثير من الخمر ولايدخن كثيراً . وأعتقد أننا نستطيع أن نجعل منه قسيساً لو أفردناه قليلا فى البرية . ولكن آفة لين الحقيقية ليست فى الترف . وإنما فى عجزه عن أن يحب الناس فمحبته للناس عموماً وكما هم ومن أجل أنفسهم هى بداية الصلاح ورأس البر

— فماذا نصنع له إذن ؟

— أعتقد أنه محتاج لكاهن يقيم معه فى بيته ليجد فى ملازمته القوة التي ينشدها

— ولكن أتعتقد أن هذه الملازمة تفيده وتشفيه ؟

— لا أعتقد ذلك . ولكن منفعة الكنيسة الرسولية شيء يجب علينا أن نسعى لتحقيقه . ولیم لين رجل واسع النفوذ جداً . ومن مصلحة الكنيسة الرسولية أن يظل بصفة دائمة خاضعاً لسلطانها لايستغنى عن معونتها وسندها ليتمكن من مواجهة الحياة

وهكذا صدرت الأوامر إلى قسيس طيب صالح لم يكن معروفاً بتوقد الذكاء أن يحمل حقيبته ويقيم فى قصر وليم لين ليحاول إيقاظ روحه إلى أن تصدر له أوامر أخرى . فذهب الراهب الطيب القلب وأقام فى القصر . وفى اليوم التالى التمس مقابلة الكردينال وقال له بسذاجة :

— سيدنا . لقد أعطونى فراشاً ناعماً لم أستطع أن أنام فيه لحظةواحدة . فحاولت النوم على الأرض ولكنها كانت ناعمة أيضاً بما فوقها من البسط السميكة . ولولا أن هدانى التفكير إلى أن حمامى الخاص خال من البسط لما استطعت النوم فى تلك الليلة . ولكنى استيقظت وأنا أحس فى ظهرى وكتفى ألماً شديداً . فأرجو أن تعفيني يا سيدى من هذه المهمة وتعهد بها إلى سواى

— ليس من حقك أن تناقش الأوامر الصادرة اليك

— إن هذا الترف يا سيدنا يفسد النفس الصالحة

— إن نعم الله كلها طيبة . فاستمر إلى أن تصدر اليك أوامر جديدة

وعاد الراهب مكرهاً إلى القصر الكبير وهو يتوجس من تلك الحياة

أما وليم لين فبدأ ينقاد لتأثير ذلك الراهب ويصغى لكلماته وصلواته فى لهفة وتعلق كما يتعلق الغريق بحبل النجاة . لأن صوت شقيقته كان لا يترك له ساعة هدوء . كان يدوى فى أذنيه من بين أخبار العالم التى يصوغها ويقدمها للناس :

— كليم على حق . وسيأتى يوم ينتصر فيه وتندحر أنت ومن على شاكلتك يا وليم لين !

إن حوادث العالم المضطرب تتمخض عن مستقبل للبشرية جديد ، ينتفى فيه الظلم ، وينمحى فيه الجوع ، ويعيش الناس فى وئام وسلام

اشترك في روايات الهلال

(أسعار الاشتراك على الصفحة الثانية من الغلاف)

وكلاء روايات الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات — مركزها الرئيسي بطريق الملكي المفرع من شارع بيكو في بيروت صندوق بريد ١٠١٢ — (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهي تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)

العـــراق : السيد محمود حلمي — المكتبة العصرية — بغداد

اللاذقيـــة : السيد نخله سكاف

مكة المكرمة : السيد هاشم بن السيد علي نحاس — ص. ب ٩٧

البحـــرين : السيد مؤيد احمد المؤيد . مكتبة المؤيد

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400, Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجـــريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجـــلترا : Arabic Publications Distribution Bureau, 7, Bishopsthorpe Road, Sydenham, London, S.E. 26, England.

فرنســـا : Etablissements Helbaoui, 29, Rue Saint Augustin, Paris 2e France.

البـــرازيل : Dr. Michel H. Thome, Pateo Do Colegio, N° 3, 3° Andar, Sala 9, Sao Paulo, Brasil.

هذه الرواية

رجال الله (God's Men) رواية ممتعة تتناول مشكلة من مشاكل العصر الحاضر، هى فى الوقت نفسه مشكلة البشرية منذ عرفت الحكومات والأديان والفلسفة والأخلاق . ونعنى بها مشكلة الصراع المستمر بين القوة والايمان ، وبين المادة والروح ، وهى كذلك ملحمة شائقة تصور كفاح رجال يؤمنون بمثل عليا ، ويعيشون لهذه المثل الى آخر لحظة من حياتهم ليحققوها، فتتألب الدنيا عليهم وتقيم فى وجوههم العقبات والمصاعب

ويأبى القدر إلا أن يقسو على بطل هذه الرواية، فيصاب بمرض قاتل ، ثم يموت دون غايته ، فتنهض زوجته الوفية المحبة لحمل لواء رسالته بعد موته فى شجاعة وإيمان

وفى فصول الرواية نرى الحب كيف يلاعب القلوب وكيف يسيطر على الأعين والأنفس، فلا يعنى بالفتنة والجمال الجسمانى، بل أن هناك فتنة أخرى وجمالا أعظم ، وهو فتنة النفس الصافية، والروح العالية، والقلب الرحيم الذى يعطف على الأطفال ولكنه لا يريد أن يكون له أطفال اشفاقاً عليهم ورحمة لهم من شقاء الدنيا ومتاعب الحياة . وإذا الزوجة الفياضة بعاطفة الأمومة لا تكترث للأطفال لأنها مشغولة عنهم بزوجها الذى كرست فى خدمته وحبه كل عواطفها حتى عاطفة الأمومة



والمؤلفة الكبيرة بيرل بك تنتقل بمسرح الحوادث بين بكين فى عصر الأمبراطورية الفاسدة وبين أميركا فى نصف القرن الأخير ، فتحلل شعور الناس فى ظل الأنظمة المختلفة وتكشف عن خبايا القصور والسياسة ، كما تكشف عن نزوع الشعب الى الحرية والكرامة . ولقد صورت أجمل تصوير مختلف البيئات والشخصيات فى عالمنا الحديث شرقه وغربه ، كما صورت أبدع تصوير التضحية الكبرى فى سبيل الايمان ، وفى سبيل المثل الأعلى الذى يسيطر على النفس البشرية فيلهمها القوة ، ويلهمها الاطمئنان والرضى